التسامح عند الإمام البخاري
Tolerance according to Imām Bukhārī

Ahmad Muhammad Abd al-Azhim Farhat

Al-Azhar University, Cairo – Egypt
e-mail: i_one78@yahoo.com

ملخص البحث

قد يظن بعض الناس أن أهل الحديث هم الذين يمارسون الإسلام على وجه متشدد لا يخرج عن المدلول اللفظي من النصوص الشرعية، قرآنا أو حديثا. وإذا كان مفهوم التسامح هو التساهل مع الغير في المعاملات المختلفة والّتي تتجلّى في التّيسير وعدم القهر، فهذا البحث يوضحنا بكل جلاء أن الإمام البخاري رائد علم الحديث بل إمام المحدثين على الإطلاق يتصف بهذه الصفة الكريمة. حيث تلألأت حياته بجواهر التسامح وروح الإيثار على الآخرين. يستعمل هذا البحث المنهج الوصفي المكتبي حيث يتوفر فيه تصفح الكتب المتعلقة بالإمام البخاري، سواء من ناحية سيرته الذاتية وملازمته برواية الأحاديث النبوية، أو ما قال عنه العلماء. وينقسم إلى قسمين. أولهما تسامحه فيما بين الناس من العقود، والعلاقة بين السيد وعباده وإمائه، وتسامحه مع الطلبة ومع الغرماء ومع مبغضيه. أما ثانيهما فتسامحه فيما يتعلق بالحديث من حيث التلقي والآداء، ومن حيث تبويبه في كتابه الصحيح والرسالة المتضمنة فيه.

الكلمات الرئيسية : البخاري؛ التسامح؛ الحديث

Abstract

It is undeniably that many people assumed the people of hadith (ahl al-hadis) practice Islam rigidly and understand al-Qur'an and hadith literally. This article tries to reveal the hadith scholar's thoughts, Imam Abu Ismail al-Bukhari, on tolerance clearly. His biography was full of tolerance pearls and wisdom and of soul to prioritize and ease other people's affairs. Additionally, he also paid a great attention to Muslim problems. This study used a descriptive analytical method in which the writer explores the sources and references related to him from his biography and persistence in narrating hadith and Islamic scholars's opinion about him as well. To get focus more on this study, it is divided into two parts: First, Imam Bukhari's tolerant attitude towards others such as commercial transaction, relationship with servant, slave, and pupils even with haters. Second, Imam Bukhari's tolerance in narrating the hadith such as how he received and narrated hadith and how he compiled and titled the chapters in his kitab ash-sahih. All strongly emphasized that he has noble characters especially tolerance.

Keywords: al-Bukhari; tolerance; hadith

مقدمة

إن الدين الإسلامي أعلى من شأن الأخلاق الحسنة، ورغَّب في الالتزام بها، حتى إن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- قد حصر بعثته في تتميم صالح الأخلاق ومكارمها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ».[1]

وقد بين النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- أن العبد يدرك بحسن خلقه درجة العبد المكثر من العبادة، فعَنْ عَائِشَةَ –رضي الله عنها- قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ».[2]

هذا ومن أهم الأخلاق التي اهتم بها الإسلام، ودعا إليها ورغّب فيها خلق التسامح، وقد وعى الصحابة ذلك جيدًا فقدَّموا مُثُلًا عليا في التسامح وسهولة الأخلاق، وسار على نهجهم من بعدهم التابعون وأتباع التابعين، ومن بعدهم الأولياء والعلماء والصالحون، ويأتي في طليعة من اهتم بخلق التسامح من علماء أمة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- أمير المؤمنين في الحديث الإمام الحافظ الحجة أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري – رحمه الله تعالى، ورضي عنه-، فجاءت أخلاقه –رضي الله عنه- مثالًا حيًّا للتسامح ولين

[1] حديث صحيح، أخرجه أحمد في مسنده، حديث (٨٩٥٢) (١٤/ ٥١٢)، ط/ مؤسسة الرسالة–الأولى–١٤٢١هـ–٢٠٠١م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، والبخاري في الأدب المفرد، باب حسن الخلق، حديث (٢٧٣) (ص١٠٤)، ط/ دار البشائر الإسلامية–بيروت–الثالثة–١٤٠٩هـ–١٩٨٩م، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، والحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، حديث (٤٢٢١) (٢/ ٦٧٠)، ط/ دار الكتب العلمية–بيروت–الأولى–١٤١١هـ–١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

[2] حديث صحيح، أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، حديث (٤٧٩٨) (٤/ ٢٥٢)، ط/ المكتبة العصرية–بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

الجانب، واهتم بهذا الخلق وأعلى من شأنه في كتابه المبارك الصحيح الذي هو أصح الكتب المصنفة، وأصح الكتب على الإطلاق بعد القرآن الكريم، فرأيناه يخرّج الأحاديث التي تهتم بهذا الخلق، ويبثها في صحيحه المبارك، ورأيناه يضع عناوين أبواب لهذه الأحاديث تؤكد على إعلاء قيمة هذا الخلق النبيل.

ومن هنا كان لزامًا علينا إبراز هذا الخلق عند الإمام البخاري –رحمه الله تعالى–، خاصة في هذا الزمان الذي كثر فيه الهجوم على هذا الإمام العلم والحجة السند، فصاروا عن جهل أو عمد يصورون الإمام البخاري بصورة غير الصورة التي تليق به، فجعلوا يصورون صحيحه –وحاشاه– أنه داعٍ إلى سفك الدماء أو إلى التنقيص من الجناب النبوي الشريف، فاحتاج الناس إلى من يعرفهم بالإمام البخاري، حتى كأنهم يرونه رأي عين، فيرون فيه أخلاق الإسلام في أسمى تجلياتها، ويرون فيه مدى إعلائه لقيم الإسلام عامة وقيمة التسامح خاصة، فجاء هذا البحث ليجلِّيَ هذا الجانب في شخصية الإمام البخاري.

تعريف موجز بالإمام البخاري

اسمه ونسبه وكنيته هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري. ولد في شوال سنة أربع وتسعين ومائة.

نشأته وطلبه للعلم: قال أحمد بن الفضل البلخي: "ذهبَتْ عينَا مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ فِي صِغَرِهِ فرأَتْ وَالِدتُهُ فِي المَنَامِ إِبْرَاهِيْمَ الخَلِيْلَ - عَلَيْهِ السَّلاَم - فَقَالَ لَهَا: يَا هَذِهِ، قَدْ رَدَّ اللهُ عَلَى ابْنِكِ بصرَهُ لكَثْرَةِ بُكَائِكِ، أَوْ كَثْرَةِ دُعَائِكِ - شكَّ البَلْخِيُّ - فَأَصْبحْنَا وَقَدْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ بصرَهُ".[٣]

[٣] تاريخ بغداد (٢/ ٣٢٢)، ط/ دار الغرب الإسلامي–بيروت–الأولى–١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م، تحقيق: بشار عواد.

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: قلت لابي عبد الله: كيف كان بدء أمرك ؟ ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب. فقلت: كم كان سنك ؟ فقال: عشر سنين، أو أقل. ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره.

فقال يوما فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم. فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الاصل. فدخل فنظر فيه، ثم خرج، فقال لي: كيف هو يا غلام ؟ قلت: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم، فأخذ القلم مني، وأحكم كتابه، وقال: صدقت. فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه ؟ قال ابن إحدى عشرة سنة. فلما طعنت في ست عشرة سنة، كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي بها ! وتخلفت في طلب الحديث.[٤]

مصنفاته: للإمام البخاري –رحمه الله تعالى- عدة مصنفات من أهمها ما يلي:

١- صحيح البخاري، واسمه العلمي: "الْجَامِع الصَّحِيح الْمسند من حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وسننه وأيامه"[٥]، وهو أجل كتبه وأشهرها، وهو أصح الكتب بعد القرآن الكريم. وفي سبب تأليفه يقول البخاري: "كُنْتُ عندَ إِسْحَاقَ بنِ رَاهْوَيْه، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا: لَوْ جمعتُم كِتَاباً مختصِراً لسُنَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قَلبِي، فَأَخذتُ فِي جمعِ هَذَا الكِتَابِ".[٦]

[٤] تاريخ بغداد (٢/ ٣٢٢)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٣)، ط/ مؤسسة الرسالة–الثالثة–١٤٠٥هـ–١٩٨٥م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرين.

[٥] فتح الباري (١/ ٨)، ط/ دار المعرفة–بيروت–١٣٧٩هـ.

[٦] سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠١).

وقال البخاري أيضًا: "رَأَيْت النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وكأنني وَاقِف بَين يَدَيْهِ وَبِيَدِي مروحة اذب بهَا عَنهُ فَسَأَلت بعض المعبرين فَقَالَ لي أَنْت تذب عَنهُ الْكَذِب فَهُوَ الَّذِي حَملَنِي على إِخْرَاج الْجَامِع الصَّحِيح".[٧]

وقال البخاري أيضًا: "مَا وضعتُ فِي كِتَابِي (الصَّحِيْح) حَدِيْثاً إِلاَّ اغتسلتُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ".[٨]

٢- التاريخ الكبير، وفي شأن هذا الكتاب يقول البخاري: "لَمَّا طَعنْتُ فِي ثَمَانِ عَشْرَةَ، جَعَلتُ أُصَنِّفُ قضَايَا الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ وَأَقَاويلَهُم، وَذَلِكَ أَيَّامَ عُبَيْدِاللهِ بنِ مُوْسَى، وصنَّفْتُ كِتَابَ (التَّارِيْخِ) إِذْ ذَاكَ عِنْدَ قَبْرِ رَسُوْلِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي اللَّيَالِي المُقْمِرَةِ، وَقَلَّ اسْمٌ فِي التَّارِيْخِ إِلاَّ وَلَهُ قِصَّةٌ، إِلاَّ أَنِّي كَرِهْتُ تطويلَ الكِتَابِ".[٩]

٣- الأدب المفرد.

٤- التاريخ الأوسط.

٥- الضعفاء الصغير.

٦- القراءة خلف الإمام.

٧- خلق أفعال العباد.

وفاته: تُوُفِّيَ البُخَارِيُّ لَيْلَةَ السَّبْتِ، لَيْلَةَ الفِطْرِ، عِنْدَ صَلاَةِ العشَاءِ، وَدُفِنَ يَوْمَ الفِطْرِ بَعْدَ صَلاَةِ الظُّهْرِ، سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِيْنَ وَمائَتَيْنِ، وَعَاشَ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّيْنَ سَنَةً إِلاَّ ثَلاَثَةَ عَشَرَ يَوْماً.[١٠]

---

[٧] فـتح الباري (١/ ٧).

[٨] تاريخ بغداد (٢/ ٣٢٢).

[٩] سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٠٠).

[١٠] سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٦٨).

معنى التسامح وأهميته في الإسلام

تدور مادة "سمح" في اللغة على عدة معان هي:

١- السهولة والسلاسة واللين.

قال ابن منظور: "والمُسامَحة: المُساهَلة. وتَسامحوا: تَساهَلوا. وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ: «السَّماحُ رَباحٌ».[١١] أَي المُساهلة فِي الأَشياء تُرْبحُ صاحبَها. وسَمَحَ وتَسَمَّحَ: فَعَلَ شَيْئًا فَسَهَّل فيه؛ أَنشد ثَعْلَبٌ: ولكنْ إِذا مَا جَلَّ خَطْبٌ فسامَحَتْ ... بِهِ النفسُ يَوْمًا، كَانَ للكُرْه أَذْهَبا.

ابْنُ الأَعرابي: سَمَح له بحاجته وأَسْمَح أَي سَهَّل لَهُ. وَفِي الْحَدِيثِ:أَن ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ شَرِبَ لَبَنًا مَحْضاً أَيَتَوَضَّأُ؟ قَالَ: اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ.[١٢] قَالَ شَمِرٌ: قَالَ الأَصمعي مَعْنَاهُ سَهِّلْ يُسَهَّلْ لَكَ وَعَلَيْكَ، وأَنشد: فَلَمَّا تنازعْنا الحديثَ وأَسْمَحتْ.

قَالَ: أَسْمَحتْ أَسهلت وَانْقَادَتْ؛ أَبو عُبَيْدَةَ: اسْمَحْ يُسْمَحْ لَكَ بالقَطْع وَالْوَصْلِ جَمِيعًا. وَفِي حَدِيثِعَطَاءٍ: اسْمَحْ يُسْمَحْ بِكَ.وَقَوْلُهُمْ:الحَنِيفِيَّة السَّمْحة: لَيْسَ فِيهَا ضِيقٌ وَلَا شِدَّةٌ".[١٣]

---

[١١] حديث ضعيف، أخرجه الشهاب القضاعي في مسندهمن حديث عبدالله بن عمر مرفوعًا، حديث (٢٣) (١/ ٤٨)، ط/ مؤسسة الرسالة–بيروت–الثانية–١٤٠٧هـ–١٩٨٦م، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي.

[١٢] أخرجه مرفوعًا من لفظ النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– دون سؤال أحمد في مسنده، حديث (٢٢٣٣) (٤/ ١٠٣)، وأخرجه أيضًا الحارث في مسنده، كما في بغية الباحث، حديث (١٠٨١) (٢/ ٩٧٥)، ط/ مركز خدمة السنة–المدينة المنورة–الأولى–١٤١٣هـ–١٩٩٢م، تحقيق: حسين أحمد صالح الباكري، وأخرجه كذلك الطبراني في المعجم الأوسط، حديث (٥١١٢) (٥/ ٢١١)، ط/ دار الحرمين–القاهرة، تحقيق: طارق بن عوض الله محمد، وعبدالمحسن إبراهيم الحسيني، كلهم من طريق عطاء عن ابن عباس به.

وأخرجه موقوفًا على ابن عباس مع ذكر الشرب من فعله أبو يوسف القاضي في الآثار، باب الوضوء، حديث (٤٠) (ص٨)، ط/ دار الكتب العلمية–بيروت، من طريق ثابت البناني عن ابن عباس به، وأخرجه عبدالرزاق في مصنفه، كتاب الطهارة، باب المضمضة من الأشربة، حديث (٦٨٦) (١/ ١٧٧)، ط/ المجلس العلمي–الهند–الثانية–١٤٠٣هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

[١٣] لسان العرب (٢/ ٤٨٩)، ط/ دار صادر–بيروت–الثالثة– ١٤١٤هـ.

وقال الزبيدي: "(و) أَسْمَحت (الدَّابّةُ: لانَتْ) وانْقادَتْ (بَعْدَ اسْتِصْعَابٍ).(و) من الْمَجَاز: (عُودٌ سَمْحٌ بيِّنُ السَّماحَةِ والسُّمُوحةِ: مُسْتَوٍ لَيِّنٌ (لَا عُقْدَةَ فِيهِ)".[١٤]

٢- الكرم والجود والسخاء.

قال ابن منظور: "سمح: السَّماحُ والسَّماحةُ: الجُودُ. سَمُحَ سَماحَةً وسُمُوحة وسَماحاً: جَادَ؛ ورجلٌ سَمْحٌ وَامْرَأَةٌ سَمْحة مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ سِماح وسُمَحاء فِيهِمَا".[١٥]

وقال ابن منظور أيضًا: "الإِسماح: لُغَةٌ فِالسمَّاح ِ ؛ يُقَالُ: سَمَحَ وأَسْمَحَ إِذا جَادَ وأَعطى عَنْ كَرَمٍ وسَخاءٍ؛ وَقِيلَ: إِنما يُقَالُ فِي السَّخاء سَمَح".[١٦]

وقال الشريف الجرجاني في تعريف السماحة: "هي بذل ما لا يجب تفضلًا".[١٧]

ويطلق التسامح على معنى التساهل مع الغير في المعاملات المختلفة، ويكون ذلك بتيسير الأمور والملاينة فيها الّتي تتجلّى في التّيسير وعدم القهر، وسماحة المسلمين الّتي تبدو في تعاملاتهم المختلفة، سواء مع بعضهم أو مع غيرهم من أصحاب الدّيانات الأخرى.[١٨]

أهمية التسامح في الإسلام

لقد اتضح مما سبق أن التسامح يراد به السهولة واللين والسلاسة، ويراد به أيضًا الجود

[١٤] تاج العروس (٦/ ٤٨٦)، ط/ دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.

[١٥] لسان العرب (٢/ ٤٨٩).

[١٦] لسان العرب (٢/ ٤٨٩).

[١٧] التعريفات للجرجاني (ص١٢١)، ط/ دار الكتب العلمية-بيروت-الأولى-١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، تحقيق: مجموعة من العلماء.

[١٨] نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٦/ ٢٢٨٨) بتصرف يسير، ط/ دار الوسيلة-جدة-الرابعة.

والسخاء، والناظر في الكتاب والسنة يجدهما يحثان على خلق التسامح بمعنييه في مواطن كثيرة، فمن أدلة المعنى الأول قول الله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) [الحج: ٧٨]، وقوله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ) [النساء: ٢٨].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رضي الله عنهما- قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ».[١٩]

وعن أبي أمامة –رضي الله عنه- أن النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- قال: «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ».[٢٠]

وعن أبي هُرَيْرَةَ–رضي الله عنه- قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي المَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ».[٢١]

وسيأتي في المبحث الثاني مزيد تمثيل لذلك من صحيح الإمام البخاري، حتى لقد دعا كثرة هذه الأدلة الداعية إلى التسامح الفقهاءَ إلى التقعيد والتأصيل بقواعد تدل بما لا يدع مجالًا للشك أن التسهيل والتيسير والتسامح هو أحد مقاصد الشرع الشريف، فقد

[١٩] أخرجه أحمد في مسنده، حديث (٢١٠٧) (٤/ ١٦)، والبخاري في الأدب المفرد، باب حسن الخلق إذا فقهوا، حديث (٢٨٧) (ص١٠٨).

[٢٠] أخرجه أحمد في مسنده، حديث (٢٢٢٩١) (٣٦/ ٦٢٣)، والطبراني في المعجم الكبير، حديث (٧٨٦٨) (٨/ ٢١٦)، ط/ مكتبة ابن تيمية–القاهرة–الثانية، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي.

[٢١] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، حديث (٢٢٠) (١/ ٥٤)، ط/ دار طوق النجاة–الأولى–١٤٢٢هـ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر.

قال ابن نجيم الحنفي: "وَأَصْلُ الْمُسَامَحَاتِ فِي التَّصَرُّفَاتِ وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ مَشْرُوعٌ".[٢٢]

وقد قعَّد المصنفون في القواعد الفقهية قاعدةًاستنبطوها من النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وهذه القاعدة تدل على أهمية التيسير والتسامح في الإسلام، وتوضح أن مبنى الدين الإسلامي على رفع الحرج والعنت والمشقة، فقد قال تعالى: (وَمَاجَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) [الحج: ٧٨].

ونص القاعدة المشار إليها هو: "الْمَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ"، وقد اعتبر الفقهاءهذه القاعدة إحدى القواعد الخمس الكبرى التي عليها مدار علم الفقه، فممن نص على هذه القاعدةالإمام تاج الدين السبكي الشافعي[٢٣]، والإمام بدر الدين الزركشي الشافعي[٢٤]، والإمام أبوالحسن المرداوي الحنبلي[٢٥]، والإمام جلال الدين السيوطي الشافعي[٢٦]، والإمام ابن نجيم الحنفي.[٢٧]

وأما المعنى الثاني للتسامح، وهو الجود والكرم، فإن السخاء محمود طبعًا وشرعًا، وقد حثت الأدلة الشرعية حثًا بليغًا على الإنفاق، فمن ذلك قول الله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ

[٢٢] الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص٣٣٥)، ط/ دار الكتب العلمية–بيروت–الأولى–١٤١٩هـ–١٩٩٩م، تحقيق: زكريا عميرات.

[٢٣] انظر: الأشباه والنظائر للسبكي (١/ ٤٩)، ط/ دار الكتب العلمية–الأولى–١٤١١هـ–١٩٩١م.

[٢٤] انظر: المنثور في القواعد الفقهية (٣/ ١٦٩)، ط/ وزارة الأوقاف الكويتية–الثانية–١٤٠٥هـ–١٩٨٥م.

[٢٥] انظر: التحبير شرح التحرير (٨/ ٣٤٧)، ط/ ط/ مكتبة الرشد–الرياض–الأولى–١٤٢١هـ–٢٠٠٠م، تحقيق: عبدالرحمن الجبرين، وآخرَين.

[٢٦] انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي (ص٧٦)، ط/ دار الكتب العلمية–الأولى–١٤١١هـ–١٩٩٠م.

[٥٧] انظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم (ص٦٤).

أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: ٢٦١، ٢٦٢]، وقال تعالى: (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ [إبراهيم: ٣١].

وعن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ–رضي الله عنه- أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا».[٢٨]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ–رضي الله عنهما- قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ».[٢٩]

التسامح في أخلاق الإمام البخاري

يهتم كثير من الباحثين في شخصية الإمام البخاري بالنواحي العلمية في حياته

[٢٨] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، حديث (٥٩٢٨) (٦/ ١٨١)، وأخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث (١٥٢) (١/ ١١٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

[٢٩] متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، حديث (٦) (١/ ٨)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– أجود الناس بالخير من الريح المرسلة، حديث (٢٣٠٨) (٤/ ١٨٠٣)، ط/ دار إحياء التراث العربي– بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.

المباركة، ولكن من تأمل في حياة الإمام البخاري يجدها حياةً حافلةً بالأخلاق الكريمة والسجايا الطيبة والخصال الحسنة، ومن أهم الخصال البارزة في شخصية الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- خصلة التسامح، فخلق التسامح في شخصية الإمام البخاري له المحل الرفيع والمكانة السامية، وإليك بعض نماذج من تسامح الإمام البخاري:

أولًا: تسامحه في البيع والشراء:

لقد كان الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- تاجرًا، ولقد بلغ من تسامحه في البيع والشراء أنه كان إذا نوى البيع لأحدٍ من الناس لا ينقض هذه النية ولا يخالفها، حتى وإن جاءه من يدفع أكثر، فقد قَالَ غُنْجَار فِي تَارِيخه: حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن عمر الْمُقْرِئ حَدثنَا أَبُوسعيد بكر بن مُنِير قَالَ: كَانَ حُمل إِلَى مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل بضَاعَة أنفذها إِلَيْهِ أَبُو حَفْص، فَاجْتمع بعض التُّجَّار إِلَيْهِ بالعشية وطلبوها مِنْهُ بِرِبْح خَمْسَة آلَاف دِرْهَم، فَقَالَ لَهُم: انصرفوا اللَّيْلَة، فَجَاءَهُ من الْغَد تجار آخَرُونَ، فطلبوا مِنْهُ البضاعة بِرِبْح عشرَة آلَاف دِرْهَم، فردهم، وَقَالَ: أَنِّي نَوَيْت البارحة أَن أدفعها إِلَى الْأَوَّلين، فَدَفعهَا إِلَيْهِم، وَقَالَ: لَا أحب أَن أنقض نيتي.[٣٠]

ولقد بلغ من تسامح الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- أيضًا في البيع والشراء أنه كان إذا مسَّ المبيع يشتريه، وإن غالى صاحبه في ثمنه، فقد كان يتورّع أن يمس مبيعًا ثم يتركه ولا يشتريه، قال محمد بن أبي حاتم: قال لي أبو عبدالله يومًا بفربر: بلغني أن نخاسا قدم بجواري، فتصير معي؟قلت: نعم، فصرنا إليه، فأخرج جواري حسانا صباحا، ثم خرج من خلالهن جارية خزرية[٣١] دميمة عليها شحم، فنظر إليها، فمس ذقنها فقال: اشتر هذه لنا منه، فقلت:

[٣٠] انظر: تاريخ بغداد (٢/ ٣٢٢)، فتح الباري (١/ ٤٧٩).

[٣١] الخزرية: الحولاء، قال ابن منظور في لسان العرب (٤/ ٢٣٦): "الخُزْرَةُ: انقلابُ الْحَدَقَةِ نَحْوَ اللِّحاظ، وَهُوَ أَقبح الحَوَلِ".

هذه دميمة قبيحة لا تصلح، واللاتي نظرنا إليهن يمكن شراؤهن بثمن هذه، فقال: اشتر هذه، فإني قد مسست ذقنها، ولا أحب أن أمس جارية، ثم لا أشتريها، فاشتراها بغلاء خمسمائة درهم على ما قال أهل المعرفة، ثم لم تزل عنده حتى أخرجها معه إلى نيسابور.[٣٢]

ثانيًا: تسامحه مع الإماء والعبيد والخدم:

إن الإنسان قد يتسامح مع غيره رجاء محمدة ذلك الغير له، وأقل ما يكون الإنسان تسامحًا إذا كان مع عبيده وخدمه، ولكن الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- لم يكن كذلك، بل كان في قمة التسامح مع جاريته، فلم يكتف بعدم إيذائها، بل عفا عنها حين أساءت، بل وأحسن إليها أيضًا، فقد قَالَ عبدالله بن مُحَمَّد الصيارفي: كنت عِنْد مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل فِي منزله، فَجَاءَتْهُ جَارِيَته، وأرادت دُخُول الْمنزل، فَعَثَرَتْ على محبرة بَين يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: كَيفَ تمشين؟! قَالَت: إِذا لم يكن طَرِيقٌ كَيفَ أَمْشِي، فَبسط يَدَيْهِ، وَقَالَ: اذهبي، فقد أَعتَقتك، قيل لَهُ: يَا أَبَا عبدالله، أغضبتك. قَالَ: فقد أرضيتُ نَفسِي بِمَا فعلت.[٣٣]

ففي هذا الموقف من الإمام البخاري يتجلى التسامح في أسمى صوره وأرقى معانيه، فالجارية تتعثَّر بالمحبرة التي بين يديه، ثم حين يسألها ترد عليه بصورة غير لائقة، ومع ذلك يكظم غيظه، بل ويحسن إليها فيعتقها، فالإمام البخاري في هذهالحادثة يتجلى عنده التطبيق العملي لقوله تعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [آل عمران: ١٣٤].

ثالثًا: تسامحه في تأدية الحق الذي عليه:

[٣٢] تاريخ الإسلام للذهبي (٦/ ١٤٠)، ط/ دار الغرب الإسلامي–الأولى–٢٠٠٣م، تحقيق: بشار عواد.

[٣٣] سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ٤٥٢)، فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٨٠).

قَالَ محمد بن أبي حاتم وراق البُخَارِيّ: ركبنا يَوْمًا إِلَى الرَّمْي وَنحن بفربر، فخرجنا إِلَى التَّرْب الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الفرضة، فَجعلنَا نرمي، فَأَصَاب سهم أبي عبدالله وتد[٣٤] القنطرة الَّتِي على النَّهر، فانشق الوتد، فَلَمَّا رأى ذَلِك نزل عَن دَابَّته، فَأخْرج السهْم من الوتد، وَترك الرَّمْي، وَقَالَ لنا: ارْجعُوا، فرجعنا، فَقَالَ لي: يَا أَبَا جَعْفَر، لي إِلَيْك حَاجَة، وَهُوَ يتنفس الصعداء، فَقلت: نعم، قَالَ: تذْهب إِلَى صَاحب القنطرة، فَتَقول: إِنَّا أخللنا بالوتد، فَنحب أَن تَأْذن لنا فِي إِقَامَة بدله أَو تَأْخُذ ثمنه وتجعلنا فِي حل مِمَّا كَانَ منا، وَكَانَ صَاحب القنطرة حميد بن الْأَخْضَر، فَقَالَ لي: أبلغ أَبَا عبدالله السَّلَام، وَقل لَهُ: أَنْت فِي حل مِمَّا كَانَ مِنْك، فَإِن جَمِيع ملكي لَك الْفِدَاء، فأبلغته الرسَالَة، فتهلل وَجهه، وَأَظْهر سُرُورًا كثيرًا، وَقَرَأَ ذَلِك الْيَوْم للغرباء خَمْسمِائَة حَدِيث، وَتصدق بثلثمائة دِرْهَم.[٣٥]

هذا موقف آخر للإمام البخاري يتجلى فيه تسامحه، حيث إنه تسامح في تأدية الحق الذي عليه، وأرسل إلى صاحب القنطرة يسأله إقامة وتد مكان الذي انشق أو أخذ الثمن، فما كان من صاحب القنطرة إلا أن أبدى حبه للإمام البخاري، وأرسل إليه أن جميع ما أملك فداء لك، فتهلل الإمام البخاري وتسامح مع طلبة الحديث فزادهم في عدد الأحاديث المقروءة، وتصدق لله تعالى بعدد كبير من الدراهم، وهذا من جوده وكرمه، فما أروع هذا التسامح!!

رابعًا: تسامحه في عدم الغيبة:[٣٦]

---

[٣٤] قال ابن منظور في لسان العرب (٣/ ٤٤٤): "الوَتِدُ والوَدُّ: مَا رُزَّ فِي الحائِط أَو الأَرض مِنَ الْخَشَبِ، وَالْجَمْعُ أَوتادٌ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} [النبأ: ٧]".

[٣٥] سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/ ٤٤٣)، فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٨٠).

[٣٦] الغِيبة هي: ذكر الإنسان بما يكره في حال غَيبته، فإن كان فيه ما يقال فهي غيبة، وإذا لم يكن فيه ذلك فهي بهتان. انظر: التعريفات للجرجاني (ص١٦٣)، وقد نهى الله تعالى عنها فقال: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ} [الحجرات: ١٢].

إن الغيبة خلق مذموم شرعًا، والأدلة الشرعية في التحذير منه كثيرة، والاحتراز من هذا الخلق الذميم صعب، ومع ذلك فقد ورد عن بكر بن مُنِير قال: سَمِعت مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل البُخَارِيّ يَقُول: أَنِّي لأرجو أَن ألقى الله، وَلَا يحاسبني أَنِّي اغتبت أحدا.[٣٧]

بل قَالَ وراق البخاري: سمعته –أي البخاري- يَقُول: مَا اغتبت أحدا قطّ مُنْذُ علمت أَن الْغيبَة حرَام.[٣٨]

قال ابن حجر العسقلاني: "وللبخاري في كلامه على الرجال توق زائدة وتحر بليغ يظهر لمن تأمل كلامه في الجرح والتعديل فإن أكثر ما يقول سكتوا عنه فيه نظر تركوه ونحو هذا وقل أن يقول كذاب أو وضاع وإنما يقول كذبه فلان رماه فلان يعني بالكذب".[٣٩]

خامسًا: تسامحه عند ظنه الغيبة من نفسه:

يظهر مما سبق أن الإمام البخاري كان يتحرى ألا يغتاب أحدًا، ومع ذلك فإنه عندما ظن أنه اغتاب إنسانًا، ولم تكن بغِيبة لسانيةٍ طلب منه أن يسامحه، فالإمام البخاري لم يتكلم بكلمة سوء في حق الرجل، وإنما تبسّم فقط، والرجل لم يبصره؛ لأنه ضرير، ومع ذلك طلب الإمام البخاري من الرجل الصفح عنه، فقد قال محمد بن أبي حاتم: سمعته – أي الإمام البخاري- يَقُول لأبي معشر الضَّرِير: اجْعَلنِي فِي حل يَا أَبَا معشر، فَقَالَ: من أَي شَيْء؟ فَقَالَ: رويت حَدِيثا يَوْمًا، فَنَظَرت إِلَيْك، وَقد أعجبتَ بِهِ وَأَنت تحرّك رَأسك ويديك، فتبسمت من ذَلِك، قَالَ: أَنْت فِي حل يَرْحَمك الله يَا أَبَا عبد الله.[٤٠]

[٣٧] تاريخ بغداد (٢/ ١٣)، تاريخ دمشق (٥٢/ ٨١)، ط/ دار الفكر-١٤١٥هـ-١٩٩٥م، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي.

[٣٨] سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤١).

[٣٩] فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٨٠).

[٤٠] سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٤)، فتح الباري (١/ ٤٨٠).

سادسًا: تسامحه في الجود والكرم:

إن أحد معنيي التسامح في اللغة الجود والكرم، وإن جود الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- ظاهر جدًا في سيرته، وقد تقدم ما يدل على ذلك ويشهد له، ويزداد ذلك بيانًا ووضوحًا بما نقله ورَّاقُه عنه حيث قال: كُنَّا بفربر، وَكَانَ أَبُو عبدالله يَبْنِي رِبَاطًا مِمَّا يَلِي بُخَارى، فَاجْتمع بشر كثير يعينونه على ذَلِك، وَكَانَ ينْقل اللَّبِن[41] ، فَكنت أَقُول لَهُ: يَا أَبَا عبدالله، إِنَّك تكْفى ذَلِك، فَيَقُول: هَذَا الَّذِي يَنْفَعنِي، قَالَ: وَكَانَ ذبح لَهُم بقرة، فَلَمَّا أدْركْت الْقُدُور دَعَا النَّاس إِلَى الطَّعَام، فَكَانَ مَعَه مائَة نفس أَو أَكثر، وَلم يكن علم أَنه يجْتَمع مَا اجْتمع، وَكُنَّا أخرجنَا مَعَه من فربر خبْزًا بِثَلَاثَة دَرَاهِم، وَكَانَ الْخبز إِذْ ذَاك خَمْسَة أمنان[42] بدرهم، فألقيناه بَين أَيْديهم فَأكل جَمِيع من حضر، وفضلت أرغفة صَالِحَة، وَقَالَ: وَكَانَ قَلِيل الْأكل جدا كثير الْإِحْسَان إِلَى الطّلبَة مفرط الْكَرم.[43]

وقَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: كَانَتْ لَهُ –أي البخاري- قِطْعَةُ أَرْضٍ يَكْرِيهَا[44] كُلَّ سَنَةٍ بِسَبْعِ مائَةِ دِرْهَمٍ، فَكَانَ ذَلِكَ المُكْتَرِي رُبَّمَا حملَ مِنْهَا إِلَى أَبِي عَبْدِاللهِ قِثَّاةً أَوْ قِثَّاتَينِ؛ لأَنَّ أَبَا عَبْدِاللهِ كَانَ مُعْجَباً بِالقِثَّاءِ النَّضيجِ، وَكَانَ يُؤْثِرُهُ عَلَى البطيخِ أَحْيَاناً، فَكَانَ يَهَبُ لِلرَّجُلِ مائَةَ

[41] قال أبو العباس الفيومي في المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢/ ٥٤٨) ط/ المكتبة العلمية–بيروت: "اللَّبِنُ بِكَسْرِ الْبَاءِ مَا يُعْمَلُ مِنْ الطِّينِ وَيُثَنَّى بِهِ الْوَاحِدَةُ لَبِنَةٌ".

[42] الأمنان جمع المَنّ، وقد قال ابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٤١٨): "المَنُّ لُغَةٌ فِي المَنا الَّذِي يُوزَنُ به"، وقال فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة –حفظه الله تعالى- في المكاييل والموازين الشرعية (ص٢٨) بتصرف، ط/ القدس للإعلان والنشر–القاهرة–الثانية–١٤٢١هـ–٢٠٠١م: "المَنّ (٢٦٠) درهمًا، فالمَن عند الحنفية = ٨١٢,٥ جرامًا، وعند الجمهور = ٧٧٣,٥ جرامًا".

[43] تاريخ الإسلام (٦/ ١٤٠)، فتح الباري (١/ ٤٨١).

[44] يكريها، أي: يؤجرها، فقد قال الفيومي في المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢/ ٥٣٢): "الْكِرَاءُ –بِالْمَدِّ– الْأُجْرَةُ".

دِرْهَمٍ كُلَّ سَنَةٍ لحملِهِ القِثَّاءَ إِلَيْهِ أَحْيَاناً.[٤٥]

وقَالَ محمد بن أبي حاتم أيضًا: وَكَانَ يتصدَّقُ بِالكَثِيْرِ، يَأْخُذُ بِيَدِهِ صَاحِبَ الحَاجَةِ مِنْ أَهْلِ الحَدِيْثِ، فيُنَاوِلُهُ مَا بَيْنَ العِشْرِيْنَ إِلَى الثَّلاَثِيْنَ، وَأَقَلَّ وَأَكْثَرَ، مِنْ غَيْرِ أَن يَشْعُرَ بِذَلِكَ أَحَدٌ، وَكَانَ لاَ يُفَارِقُهُ كِيْسُهُ، وَرَأَيْتُهُ نَاولَ رَجُلاً مِرَاراً صُرَّةً فِيْهَا ثَلاَثُ مائَةِ دِرْهَمٍ -وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ أَخْبَرَنِي بعَدَدِ مَا كَانَ فِيْهَا مِنْ بَعْدُ-، فَأَرَادَ أَنْ يدعُوَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِاللهِ: ارفُقْ، وَاشتغلْ بِحَدِيْثٍ آخرَ كيلاَ يعلمَ بِذَلِكَ أَحَدٌ.

قَالَ: وَكُنْتُ اشْتَرَيْتُ مَنْزِلاً بتسعِمائَةٍ وَعِشْرِيْنَ دِرْهَماً، فَقَالَ: لِيإِلَيْكَ حَاجَةٌ تَقْضِيهَا؟قُلْتُ: نَعَمْ، وَنُعْمَى عينٍ، قَالَ: يَنْبَغِي أَنْ تصيرَ إِلَىنوحُ بن أَبِي شدَّادٍ الصَّيْرَفِيِّ، وَتَأْخُذَ مِنْهُ أَلفَ دِرْهَمٍ، وَتَحْمِلَهُ إِلَيَّ، فَفَعَلتُ، فَقَالَ لِي: خُذْهُ إِلَيْكَ، فَاصرِفْهُ فِي ثمنِ المَنْزِلِ، فَقُلْتُ: قَدْ قَبِلْتُهُ مِنْكَ وَشكرتُهُ، وَأَقبلنَا عَلَى الكِتَابَةِ، وَكُنَّا فِي تَصْنِيْفِ (الجَامِعِ)، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَاعَةٍ، قُلْتُ: عَرَضَتْ لِي حَاجَةٌ لاَ أَجْتَرِئُ رفعَهَا إِلَيْكَ، فَظنَّ أَنِّي طَمِعْتُ فِي الزِّيَادَةِ، فَقَالَ: لاَ تحتشمْنِي، وَأَخْبِرْنِي بِمَا تَحْتَاجُ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكُوْنَ مأَخوذاً بِسببِكَ، قُلْتُ لَهُ: كَيْفَ؟قَالَ: لأَنْ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- آخَى بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فذكرَ حَدِيْثَ سَعْدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ[٤٦]، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ جَعَلتُكَ فِي حِلٍّ مِنْ جَمِيْعِ مَا تَقُوْلُ، وَوهبْتُ لَكَ المَالَ الَّذِي عرضتَهُ عليَّ، عَنَيْتُ المُنَاصفَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: لِي جَوَارٍ وَامْرَأَةٌ، وَأَنْتَ عَزَبٌ، فَالَّذِي يَجِبُ

[٤٥] سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٩).

[٤٦] أخرج هذا الحديث البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب بعد باب كيف آخى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- بين أصحابه، حديث (٣٩٣٧) (٥/ ٦٩) عَنْ أَنَس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَدِمَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْف المَدِينَةَ، فَآخَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْد بْن الرَّبِيع الأَنْصَارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْه أَنْ يُنَاصفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ عَبْدُالرَّحْمَن: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلكَ وَمَالكَ، دُلَّنِي عَلَى السُّوق، فَرَبحَ شَيْئًا منْ أَقط وَسَمْن، فَرَآهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ- بَعْدَ أَيَّام وَعَلَيْه وَضَرٌ منْ صُفْرَة، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ-: «مَهْيَمْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَن؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً منَ الأَنْصَارِ قَالَ: «فَمَا سُقْتَ فِيهَا؟»، فَقَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ منْ ذَهَب، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ-: «أَوْلمْ وَلَوْ بشَاة».

عليَّ أَنْ أُنَاصِفَكَ لنستوِي فِي المَالِ وَغَيْرِهِ، وَأَربحُ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ فعلْتَ - رَحِمَكَ اللهُ- أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِذْ أَنْزَلْتَنِي مِنْ نَفْسِكَ مَا لَمْ تُنْزِلْ أَحداً، وَحللتُ مِنْكَ محلَّ الوَلَدِ، ثُمَّ حَفِظَ عليَّ حَدِيْثِي الأَوَّل، وَقَالَ: مَا حَاجَتُكَ؟قُلْتُ: تَقْضِيهَا؟قَالَ: نَعَمْ، وَأُسَرُّ بِذَلِكَ، قُلْتُ: هَذِهِ الأَلفُ، تَأْمُرُ بِقَبُولِهِ، وَاصْرِفْهُ فِي بَعْضِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَقَبِلَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ضَمِنَ لِي قَضَاءَ حَاجَتِي، ثُمَّ جلسْنَا بَعْدَ ذَلِكَ بيومَيْنِ لتَصْنِيْفِ (الجَامِع)، وَكَتَبْنَا مِنْهُ ذَلِكَ اليَوْمَ شَيْئاً كَثِيْراً إِلَى الظُّهْرِ، ثُمَّ صَلَّينَا الظُّهرَ، وَأَقبلْنَا عَلَى الكِتَابَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نكُوْنَ أَكلْنَا شَيْئاً، فرآنِي لَمَّا كَانَ قُرْبَ العصرِ شِبْهَ القَلِقِ المستوحِشِ، فَتوهَّمَ فِيَّ ملاَلاً، وَإِنَّمَا كَانَ بِيَ الحُصرُ[٤٧] غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَكنْ أَقدرُ عَلَى القِيَامِ، وَكُنْتُ أَتَلَوَّى اهتمَاماً بِالحُصرِ، فَدَخَلَ أَبُو عَبْدِاللهِ المَنْزِلَ، وَأَخْرَجَ إِلَيَّ كَاغدَةً فِيْهَا ثَلاَثُمائَةِ دِرْهَمٍ، وَقَالَ: أَمَا إِذْ لَمْ تقبلْ ثمنَالمَنْزِلِ فَيَنْبَغِي أَنْ تصرِفَ هَذَا فِي بَعْضِ حَوَائِجِكَ، فجهَدَنِي، فَلَمْ أَقبلْ، ثُمَّ كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ، كتبنَا إِلَى الظُّهرِ أَيْضاً، فَنَاوَلَنِي عِشْرِيْنَ دِرْهَماً، فَقَالَ: يَنْبَغِي أَنْ تصرِفَ هَذِهِ فِي شرَاءِ الخُضرِ وَنحوِ ذَلِكَ، فَاشْتَرَيْتُ بِهَا مَا كُنْتُ أَعلَمُ أَنَّهُ يلاَئِمُهُ، وَبعثْتُ بِهِ إِلَيْهِ، وَأَتيتُ، فَقَالَ لِي: بَيَّضَ اللهُ وَجْهَكَ، لَيْسَ فيكَ حِيْلَةٌ، فَلاَ يَنْبَغِي لَنَا أَن نُعَنِّي أَنْفُسَنَا، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ جمعتَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَأَيُّ رَجُلٍ يَبَرُّ خَادِمَهُ بِمثلِ مَا تَبَرُّنِي، إِنْ كُنْتُ لاَ أَعرِفُ هَذَا؛ فلَسْتُ أَعرِفُ أَكْثَرَ مِنْهُ.[٤٨]

سابعًا: تسامحه مع الطلبة:

إن تلاميذ الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- رأوا من علم الإمام البخاري وحفظه لسنة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- ما دعاهم إلى توقيره وتعظيمه، حتى قال أحمد بن حمدون القصار: سمعت مسلم بن الحجاج- وجاء إلى محمدبن إسماعيل البخاري، فقبَّل بين عينيه-

[٤٧] قال الزبيدي في تاج العروس (١١/ ٢٦): "قد أَحذَه الحُصْرُ، وأَحذَه الأُسْرُ شيْءٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَن يُمْسَك بِبَوْلِه".

[٤٨] سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٥٢).

وَقَالَ: دعني حتى أقبل رجليك ياأستاذ الأستاذين، وسيدالمحدثين، وطبيب الحديث فيعلله.[٤٩]

ومع كل هذا التوقير الذي يستحقه الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- ما كان يعتمد أو يعوّل عليه، بل كان يلي شئونه بنفسه، فكان من تسامحه معهم أنه ما كان يُتعبهم في حاجته، فقد قَالَ مُحَمَّد بن أبي حَاتِم الْوراق: كَانَ أَبُو عبد الله إِذا كنت مَعَه فِي سفر يجمعنا بَيت وَاحِد إِلَّا فِي القيظ[٥٠] ، فَكنت أرَاهُ يقوم فِي اللَّيْلَة الْوَاحِدَة خمس عشرَة مرّة إِلَى عشْرين مرّة، فِي كل ذَلِك يَأْخُذ القداحة، فيوري نَارا بِيَدِهِ، ويسرج، وَيخرّج أَحَادِيث فَيعلم عَلَيْهَا، ثمَّ يضع رَأسه، فَقلت لَهُ: إِنَّك تحمل على نَفسك كل هَذَا وَلَا توقظني، قَالَ: أَنْت شَاب فَلَا أحب أَن أفسد عَلَيْك نومك.[٥١]

وكان من تسامحه مع طلابه أيضًا أنه كان يواسيهم حتى لا يملوا من طلب العلم، فقد قال وراق البخاري محمد بن أبي حاتم: أَملَى –أي البخاري- يَوْماً عليَّ حَدِيْثاً كَثِيْراً، فَخَافَ مَلاَلِي، فَقَالَ: طِبْ نَفْساً، فإن أَهْلَ الملاَهِي فِي ملاَهِيهِم، وَأَهْلَ الصّنَاعَاتِ فِي صنَاعَاتِهِم، وَالتُّجَّارَ فِي تجَارَاتِهِم، وَأَنْتَ مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابِهِ، فَقُلْتُ: لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا، يرحمُكَ اللهُ إِلاَّ وَأَنَا أَرَى الحظَّ لنفسِي فِيْهِ.[٥٢]

ثامنًا: تسامحه مع الغريم:[٥٣]

---

[٤٩] تاريخ بغداد (١٥/ ١٢١).

[٥٠] قال ابن منظور في لسان العرب (٧/ ٤٥٦): "القَيْظُ: صَمِيمُ الصيْف، وَهُوَ حاقُّ الصَّيْفِ".

[٥١] فـــتح الباري (١/ ٤٨١).

[٥٢] سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٥).

[٥٣] قال ابن منظور في لسان العرب (١٢/ ٤٣٦): "الغَرِيم: الَّذِي لَهُ الدَّيْن وَالَّذِي عَلَيْهِ الدَّيْنُ جَمِيعًا، وَالْجَمْعُ غُرَماء" قلت: والمراد هنا المدين الذي عليه الدَّين.

لقد تسامح الإمام البخاري مع المدين المماطل في أداء الدين حتى نهى تلامذته ومحبيه عن إيذائه، بل أرسل إليهم برسالة يطلب منهم عدم التعرض له إلا بالخير.

قال محمد بن أبي حاتم: وكان لابي عبد الله غريم قطع عليه مالا كثيرا، فبلغه انه قدم آمل، ونحن عنده بفربر، فقلنا له: ينبغي أن تعبر وتأخذه بمالك. فقال: ليس لنا أن نروعه.

ثم بلغ غريمه مكانه بفربر، فخرج إلى خوارزم، فقلنا: ينبغي أن تقول لابي سلمة الكشاني عامل آمل ليكتب إلى خوارزم في أخذه، واستخراج حقك منه، فقال: إن أخذت منهم كتابا طمعوا مني في كتاب، ولست أبيع ديني بدنياي. فجهدنا، فلم يأخذ حتى كلمنا السلطان عن غير أمره. فكتب إلى والي خوارزم. فلما أبلغ أبا عبد الله ذلك، وجد وجدا شديدا. وقال: لا تكونوا أشفق علي من نفسي. وكتب كتابا، وأردف تلك الكتب بكتب، وكتب إلى بعض أصحابه بخوارزم أن لا يتعرض لغريمه الا بخير. فرجع غريمه إلى آمل، وقصد إلى ناحية مرو.

فاجتمع التجار، وأخبر السلطان بأن أبا عبد الله خرج في طلب غريم له. فأراد السلطان التشديد على غريمه، وكره ذلك أبو عبد الله، وصالح غريمه على أن يعطيه كل سنة عشرة دراهم شيئا يسيرا. وكان المال خمسة وعشرين ألفا. ولم يصل من ذلك المال إلى درهم، ولا إلى أكثر منه وكان لابي عبد الله غريم قطع عليه مالا كثيرا، فبلغه انه قدم آمل، ونحن عنده بفربر، فقلنا له: ينبغي أن تعبر وتأخذه بمالك. فقال: ليس لنا أن نروعه.

ثم بلغ غريمه مكانه بفربر، فخرج إلى خوارزم، فقلنا: ينبغي أن تقول لابي سلمة الكشاني عامل آمل ليكتب إلى خوارزم في أخذه، واستخراج حقك منه، فقال: إن أخذت منهم كتابا طمعوا مني في كتاب، ولست أبيع ديني بدنياي. فجهدنا، فلم يأخذ حتى كلمنا السلطان عن غير أمره. فكتب إلى والي خوارزم. فلما أبلغ أبا عبد الله ذلك، وجد وجدا شديدا. وقال: لا

تكونوا أشفق علي من نفسي. وكتب كتابا، وأردف تلك الكتب بكتب، وكتب إلى بعض أصحابه بخوارزم أن لا يتعرض لغريمه الا بخير. فرجع غريمه إلى آمل، وقصد إلى ناحية مرو.

فاجتمع التجار، وأخبر السلطان بأن أبا عبد الله خرج في طلب غريم له. فأراد السلطان التشديد على غريمه، وكره ذلك أبو عبد الله، وصالح غريمه على أن يعطيه كل سنة عشرة دراهم شيئا يسيرا. وكان المال خمسة وعشرين ألفا. ولم يصل من ذلك المال إلى درهم، ولا إلى أكثر منه. [٥٤]

تاسعًا: تسامحه مع مبغضيه:

إن جزءًا من وراثة العلماء للنبي –صلى الله عليه وآله وسلم- أن ينالَهم الأذى من أعدائهم ومبغضيهم، وأن يأتسي العلماء بالنبي –صلى الله عليه وآله وسلم- فيصفحوا عنهم ويمتنعوا من الدعاء عليهم، وذلك كما فعل النبي –صلى الله عليه وآله وسلم-، فعَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ–رضي الله عنه- قَالَ: لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- غَنَائِمَ حُنَيْنٍ بِالْجِعِرَّانَةِ، ازْدَحَمُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ فَضَرَبُوهُ وَشَجُّوهُ، قَالَ: فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ جَبْهَتِهِ، وَيَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ جَبْهَتِهِ، يَحْكِي الرَّجُلَ، وَيَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». [٥٥]

[٥٤] سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٦)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/ ٢٢٦)، ط/ دار هجر–الثانية–١٤١٣هـ، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبدالفتاح محمد الحلو.

[٥٥] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث (٣٤٧٧) (٤/ ١٧٥)، وأحمد في مسنده، حديث (٤٣٦٦) (٧/ ٣٧٦)، واللفظ لأحمد.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ–رضي الله عنه- قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً».[٥٦]

ولقد نال الإمام البخاريَّ –رحمه الله تعالى- الأذى من مبغضيه، ولكنه اقتدى بالنبي –صلى الله عليه وآله وسلم- فامتنع عن الدعاء لهم، قال محمد بن أبي حاتم: كَانَ كَثِيْرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ –أي البخاري- يَقُوْلُوْنَ لَهُ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقَعُ فيكَ، فَيَقُوْلُ: (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيْفاً) [النِّسَاء ٧٦]، وَيتلو أَيْضاً: (وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ) [فَاطِر: ٤٣]، فَقَالَ لَهُ عَبْدُالمَجِيْدِ بنُ إِبْرَاهِيْمَ: كَيْفَ لاَ تدعُو اللهَ عَلَى هَؤُلاَءِ الَّذِيْنَ يظلِمُونَكَ وَيتنَاولونَكَ وَيَبْهَتُونَكَ؟ فَقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ»[٥٧]، وَقَالَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ-: «مَنْ دَعَا عَلَى ظَالِمِهِ فَقَدِ انْتَصَرَ».[٥٨]

التسامح في صحيح الإمام البخاري

إن صحيح الإمام البخاري هو أهم كتبه، بل هو أهم كتب الإسلام بعد القرآن الكريم، فهو أصحُّ الكتب المصنفة بإجماع العلماء، وإن الناظر في هذا الكتاب المبارك يجد أن الإمام البخاري قد أعلى فيه من قيمة التسامح، وذلك من خلال أمرين، أحدهما يختص بالرواة

[٥٦] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث (٢٥٩٩) (٤/ ٢٠٠٦).

[٥٧] أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أسيد بن حضير –رضي الله عنه–، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي –صلى الله عليه وآله وسلم– للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»، حديث (٣٧٩٢) (٥/ ٣٣).

[٥٨] أخرجه الترمذي في سننه من حديث عائشة –رضي الله عنها–، كتاب أبواب الدعوات، باب بعد في فضل التوبة والاستغفار بعدة أبواب، حديث (٣٥٥٢) (٥/ ٥٥٤)، ط/ مصطفى البابي الحلبي–مصر–الثانية–١٣٩٥هـ–١٩٧٥م، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخرَين، وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ أَبِي حَمْزَةَ، وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ فِي أَبِي حَمْزَةَ مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ، وَهُوَ: مَيْمُونٌ الأَعْوَرُ"، وانظر: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٩).

الذين خرَّج لهم البخاري في صحيحه، وثانيهما يختص بالأحاديث التي خرّجها البخاري، وتراجم الأبواب التي عنون بها في كتابه الصحيح، وإليك بيان هذين الأمرين:

أولًا: تسامح الإمام البخاري في الأخذ عن الرواة المخالفين له في المذهب:

إن العداوة المذهبية غالبًا ما تحمل صاحبها على رفض أتباع المذهب الآخر وعدم الاعتراف بما لهم من خير أو فضل، ولكن الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- يضرب لنا أروع الأمثلة في التسامح مع الرواة المخالفين لمذهب أهل السنة والجماعة، فلا تحمله العداوة المذهبية على رفض مروياتهم، وإنما يتعامل مع مروياتهم بموضوعية، فيجعل ميزان قبولهم هو مدى صدقهم في النقل وأمانتهم في الرواية، فما داموا معروفين بالصدق في روايتهم، وما داموا ضابطين فإنه يقبل روايتهم، وهذا مظهر طيب من مظاهر التسامح وعدم التعصب.

وفي ذلك يقول الإمام أبو عبدالله الحاكم–رحمه الله تعالى-: " القسم الخامس من الصحيح المختلف فيه روايات المبتدعة وأصحاب الاهواء فان رواياتهم عند أكثر أهل الحديث مقبولة اذا كانوا فيها صادقين فقد حدث محمد بن اسماعيل البخارى فى الجامع الصحيح عن عباد بن يعقوب الرواجنى. وكان أبو بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة يقول حدثنا الصدوق فى روايته المتهم في دينه عباد بن يعقوب وقد احتج البخارى أيضا فى الصحيح بمحمد بن زياد الالهانى وحريز بن عثمان الرحبى وهما مما اشتهر عنهما النصب واتفق البخارى ومسلم على الاحتجاج بأبى معاوية محمد بن خازم وعبيد الله بن موسى وقد اشتهر عنهما الغلو. قال الحاكم رحمه الله وإنما جعلت هؤلاء مثالا لآخرين.[٥٩]

[٥٩] المدخل إلى كتاب الإكليل (ص٤٩)، ط/ دار الدعوة–الإسكندرية، تحقيق: فؤاد عبدالمنعم أحمد.

وقال الإمام النووي –رحمه الله تعالى-: "من كفر ببدعة لم يحتج به بالاتفاق، ومن لم يكفر،قيل: لا يحتج به مطلقاً، وقيل: يحتج به إن لم يكن ممن يستحل الكذب في نصرة مذهبه أو لأهل مذهبه، وحكي عن الشافعي، وقيل: يحتج به إن لم يكن داعية إلى بدعته، ولا يحتج به إن كان داعية، وهذا هو الأظهر الأعدل، وقول كثير أو الأكثر، وضعف الأول باحتجاج صاحبي الصحيحين وغيرهما بكثير من المبتدعة غير الدعاة".[٦٠]

ثانيًا: قيمة التسامح في أحاديث صحيح البخاري وتراجم أبوابه:

إن الناظر في صحيح الإمام البخاري يجد أنه ترجم لعدة أبواب تحث على التسامح، وذكر فيها من الأحاديث ما يشهد لذلك، وهذه نماذج أذكرها على سبيل المثال لا الحصر في ذلك الشأن:

١- (بَابٌ: المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ): يندرج هذا الباب تحت كتاب الإيمان من صحيح الإمام البخاري، وقد أخرج الإمام البخاري في هذا الباب حديث عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍوِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ».

وهذا الحديث من الأحاديث التي تحث على التسامح في معاملة الناس، فلا شك أن من تمام تسامح المسلم وتساهله مع الآخرين أن يسلموا من أذاه، وقد قال ابن رجب الحنبلي عند شرح هذا الحديث: "والمراد بذلك المسلم الكامل الإسلام، فمن لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فإن هينت فيعنه كمال الإسلام الواجب، فإن سلامة المسلمين من لسان العبد ويدهواجبة، فإن أذى المسلم حرام باللسان وباليد، فأذى اليد: الفعل،

[٦٠] التقريب والتيسير (ص٥٠)، ط/ دار الكتاب العربي–بيروت–الأولى–١٤٠٥هـ–١٩٨٥م، تحقيق: محمد عثمان الخشت.

وأذى اللسان القول".[٦١]

٢- (بَابٌ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ مِنَ الإِسْلاَمِ): يندرج هذا الباب أيضًا تحت كتاب الإيمان، وقد أخرج البخاري في هذا الباب حديث عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍوِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ».

وفي هذا الحديث حثٌّ على نوعين من أنواع الكرم والجود، وهما: إطعام الطعام وإفشاء السلام، وقد ترجم البخاري أيضًا بعد ذلك لباب بعنوان: "بَابٌ: إِفْشَاءُ السَّلاَمِ مِنَ الإِسْلاَمِ"، وفي هذا إعلاء لقيمة التسامح في الفعل والقول؛ إذ من التسامح في الفعل الجود بإطعام الطعام، ومن التسامح في القول الجود بإفشاء السلام.

٣- (بَابٌ: مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ): يندرج هذا الباب كذلك تحت كتاب الإيمان، وقد خرّج البخاري فيه حديث أَنَسٍ –رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

ومما لا شك فيه أن في هذا الحديث دعوة كبرى إلى التسامح؛ إذ إن قمة التسامح مع الآخرين أن يحب الإنسان لهم ما يحبه لنفسه.

٤- (بَابٌ: الدِّينُ يُسْرٌ، وَقَوْلُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ»): ذكر الإمام البخاري هذا الباب ضمن أبواب كتاب الإيمان، وقد أخرج فيهحديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ

[٦١] فتح الباري لابن رجب (١/ ٣٧)، ط/ مكتبة الغرباء الأثرية–المدينة المنورة–الأولى–١٤١٧هـ–١٩٩٦م، تحقيق/ محمود شعبان عبدالمقصود، وآخرين.

أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ».

وقد قال العلامة البدر العيني –رحمه الله تعالى- في شرح ذلك: "وَالْمُرَاد بالملة الحنيفية: الْمِلَّة الإبراهيمية-عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام-مقتبسًا من قَوْله تَعَالَى: (مِلَّةإِبْرَاهِيم حَنِيفا) (الْبَقَرَة: ١٣٥)،

والحنيف عند العرب من كان على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم سموا من اختتن وحج البيت حنيفا والحنيف المائل عن الباطل إلى الحق وسمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام حنيفا لأنه مال عن عبادة الأوثان قوله السمحة بالرفع صفة الحنيفية ومعناها السهلة والمسامحة هي المساهلة والملة السمحة التي لا حرج فيها ولا تضييق فيها على الناس وهي ملة الإسلام.[٦٢]

٥- (بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ وَالعِلْمِ كَيْ لاَ يَنْفِرُوا): وقد ترجم البخاري –رحمه الله تعالى- بهذا الباب ضمن أبواب كتاب العلم، وقد أخرج فيه حديث ابْنِ مَسْعُودٍ–رضي الله عنه- قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا».

وقد قال ابن حجر العسقلاني –رحمه الله تعالى-: قوله كان يتخولنا بالخاء المعجمة وتشديد الواو قال الخطابي الخائل بالمعجمة هو القائم المتعهد للمال يقال خال المال يخوله تخولا إذا تعهده وأصلحه والمعنى كان يراعى الأوقات في تذكيرنا ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل.[٦٣]

[٦٢] عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٣٥)، ط/ دار إحياء التراث العربي–بيروت.

[٦٣] فتح الباري (١/ ١٦٢).

فمن سماحة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- وتيسيره على أصحابه أنه لم يكن يديم وعظهم كل يوم حتى يملوا، بل كان –صلى الله عليه وآله وسلم- يتعاهدهم بالموعظة في أوقات نشاطهم.

٦- (بَابُ مَنْ سَمِعَ شَيْئًا فَلَمْ يَفْهَمْهُ فَرَاجَعَ فِيهِ حَتَّى يَعْرِفَهُ) يندرج هذا الباب أيضًا تحت كتاب العلم، وقد خرّج فيه البخاري حديث ابن أبي مليكة أن عَائِشَةَ –رضي الله عنها- زَوْجَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: كَانَتْ لاَ تَسْمَعُ شَيْئًا لاَ تَعْرِفُهُ، إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) [الانشقاق: ٨]، قَالَتْ: فَقَالَ: "إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ".

فهذا الحديث يفيد أن من مسامحة النبي –صلى الله عليه وآله وسلم- مع أصحابه أنه لم يكن يضجر من مراجعتهم إياه في العلم، قال ابن حجر: "وفي الحديث ما كان عند عائشة من الحرص على تفهم معاني الحديث وأن النبي صلى الله عليه و سلم لم يكن يتضجر من المراجعة في العلم".[٦٤]

٧- (بَابُ مَنْ لاَ يَتَوَضَّأُ مِنَ الشَّكِّ حَتَّى يَسْتَيْقِنَ) يدخل هذا الباب تحت كتاب الوضوء، وقد خرّج البخاري فيه حديث عَبَّادِ بْنِ تَمِيمٍ، عَنْ عَمِّهِ، أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الرَّجُلُ الَّذِي يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الشَّيْءَ فِي الصَّلاَةِ؟ فَقَالَ: «لاَ يَنْفَتِلْ -أَوْ لاَ يَنْصَرِفْ- حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا».

فهذا الحديث يفيد أن من سهولة الدين ويسره الأخذَ باليقين وطرحَ الشك خاصة في

[٦٤] فتح الباري (١/ ١٩٧).

الطهارة التي تتكرر كثيرًا كل يوم، ويكثر فيها الشك والوسواس، فاليقين لا يزول بالشك، وفي هذا تيسير على المكلفين.

٨- (بَابُ التَّخْفِيفِ فِي الوُضُوءِ) هذا الباب داخل تحت كتاب الوضوء، وقد قال البدر العيني: "أَي هَذَابَاب فِي بَيَان جَوَازالتَّخْفِيف فِي الْوضُوء"[٦٥]، ولا شك أن في التخفيف تيسيرًا وتسهيلًا وسماحةً، وفي هذا الباب أخرج البخاري حديث ابْنِ عَبَّاسٍ–رضي الله عنهما- قَالَ: «بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ لَيْلَةً، فَقَامَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ قَامَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَتَوَضَّأَ مِنْ شَنٍّ مُعَلَّقٍ وُضُوءًا خَفِيفًا يُخَفِّفُهُ - عَمْرٌو وَيُقَلِّلُهُ -، وَقَامَ يُصَلِّي ...» الحديث، وعمرو المذكور هو أحد رواة الحديث.

وقد قال ابن حجر–رحمه الله تعالى-:"قوله يخففه عمرو ويقلله أي يصفه بالتخفيف والتقليل وقال بن المنير يخففه أي لا يكثر الدلك ويقلله أي لا يزيد على مرة مرة".[٦٦]

٩- (بَابُ السُّهُولَةِ وَالسَّمَاحَةِ فِي الشِّرَاءِ وَالبَيْعِ، وَمَنْ طَلَبَ حَقًّا فَلْيَطْلُبْهُ فِي عَفَافٍ): هذا الباب داخل ضمن أبواب كتاب البيوع، وقد قال الإمام البدر العيني –رحمه الله تعالى-: "أَي: هَذَا بَاب فِي بَيَان اسْتِحْبَاب السهولة، وَهُوَضد الصعب وضد الْحزن، قَالَه ابْن الْأَثِير وَغَيره، والسماحة من سمح وأسمح إِذاجاد وَأعْطى عَن كرم وسخاء، قَالَه ابْن الْأَثِير. وَفِي (الْمغرب) : السَّمْح الْجُود".[٦٧]

[٦٥] عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢/ ٢٥٤).

[٦٦] فتح الباري (١/ ٢٣٩).

[٦٧] عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١١/ ١٨٨).

وقد أخرج الإمام البخاري تحت هذا الباب حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الرَّضِيَ ـ ـَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى».

ففي هذا الحديث حثٌّ على المسامحة والمساهلة في موضعٍ لم يعتد الناس فيه ذلك؛ إذ مبنى البيع والشراء والاقتضاء في عرف الناس وعادتهم على المماكسة والمشاحنة، وقد قال ابن بطال عند شرح هذا الحديث: فيه : الحضُ على السماحة وحسن المعاملة، واستعمال معالى الأخلاق ومكارمها، وترك المشاحة والرقة فى البيع، وذلك سبب إلى وجود البركة فيه لأن النبى عليه السلام لا يحض أمته إلا على ما فيه النفع لهم فى الدنيا والآخرة، فأما فضل ذلك فى الآخرة فقد دعا عليه السلام بالرحمة لمن فعل ذلك، فمن أحب أن تناله بركة دعوة النبى - عليه السلام - فليقتد بهذا الحديث ويعمل به، وفي قوله -عليه السلام-: (إِذَا اقْتَضَى) حضٌّ على ترك التضييق على الناس عند طلب الحقوق وأخذ العفو منهم".[٦٨]

١٠- (بَابُ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا): ذكر البخاري هذا الباب تحت كتاب البيوع، ومما لا شك فيه أن إنظار المعسر وإمهاله حتى يستطيع سداد دينه يعد صورة من صور التسامح، وقد حث الإسلام على ذلك ورغب فيه، فقد قال الله تعالى: (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٢٨٠]، وقد أخرج البخاري في هذا الباب حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ـ ـَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ".

[٦٨] شرح صحيح البخاري لابن بطال (٦/ ٢١٠)، ط/ مكتبة الرشد–الرياض–الثانية–١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم.

١١- ذكر البخاري تحت كتاب النكاح ترجمة بعنوان: (بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ لِأَخِيهِ: انْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ شِئْتَ حَتَّى أَنْزِلَ لَكَ عَنْهَا؟) وهذه الترجمة توضح أن الصحابة –رضي الله عنهم- بلغوا من التسامح مبلغًا عظيمًا، حتى لقد أحب بعضهم بعضًا حبًا وصل إلى درجة الإيثار، وقد مدح الله –تعالى- الصحابة بذلك فقال: (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [الحشر: ٩].

ولقد بلغ من تسامح الصحابة وإيثار بعضهم لبعض أن يؤثر أخاه على نفسه بزوجته، فيطلق الأنصاري زوجته من أجل أن تتزوج بأخيه المهاجر، وهذا الموقف لا ينبغي أن يقاس بمقاييس الشهوات والنزوات، وإنما ينبغي أن يقاس بمقاييس الحب والإيثار.

وقد روى البخاري في هذا الباب حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ–رضي الله عنه- قَالَ: قَدِمَ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَآخَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ، وَعِنْدَ الأَنْصَارِيِّ امْرَأَتَانِ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ، ... الحديث.

قال ابن بطال: "فى هذا الحديث ما كان عليه الصدر الأول من هذه الأمة من الإيثار على أنفسهم ، وبذل النفيس لإخوانهم ، كما وصفهم الله فى كتابه".[٦٩]

١٢- (بَابُ مَنْ جَعَلَ عِتْقَ الأَمَةِ صَدَاقَهَا) يندرج هذا الباب تحت كتاب النكاح، وقد قال البدر العيني: "أَي: هَذَا بَاب فِي بَيَان من جعل عتق الْأمة صَدَاقهَا، مَعْنَاهُ: أَن يعْتق أمة

[٦٩] شرح صحيح البخاري لابن بطال (٧/ ١٦٧).

على أَن يتَزَوَّج بهَا، وَيكون عتقهَا صَدَاقهَا".[٧٠]

قلت: جاء الإسلام في واقع كانت تجارة الرقيق فيه منتشرة، ويعد الرقيق في هذا الواقع الجاهلي مقومًا من مقومات الحياة، فعمل الإسلام على إنهاء هذه التجارة بصورٍ شتى وطرق متعددة، وجعل الإسلام للعبيد حقًا على الأسياد، ورغب في حسن معاملة الرقيق، ومن صور المسامحة في معاملة الرقيق أن يعتق الرجل الأمة ويتزوجها، وقد أخرج الإمام البخاري في هذا الباب حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ–رضي الله عنه- «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْتَقَ صَفِيَّةَ، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا».

١٣- (بَابُ الرِّفْقِ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ) ذكر الإمام البخاري هذا الباب ضمن أبواب كتاب الأدب، والرفق أحد وجوه التسامح، فقد قال ابن حجر: "الرِّفْقُ-بِكَسْرِالرَّاءِ وَسُكُونِ الْفَاءِ بَعْدَهَا قَافٌ- هُوَلِينُ الْجَانِبِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِوَالْأَخْذِبِالْأَسْهَلِ،وَهُوَضدالعنف".[٧١]

وقد أخرج البخاري في هذا الباب حديثين:

أولهما: حديث عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ».

وثانيهما: حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ–رضي الله عنه- أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ، فَقَامُوا

[٧٠] عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٠/ ٨١).

[٧١] فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٤٩).

إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لاَ تُزْرِمُوهُ»، ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَيْهِ.

وقد قال ابن الملقن –رحمه الله تعالى-:

"في هذين الحديثين أدبٌ عظيمٌ من آداب الإسلام وحضٌّ على الرفق بالجاهل والصفح والإعفاء عنه؛لأنه-عليه السلام-ترك مقابلة اليهود بمثل قولهم، ونهى عائشة عن الإغلاظ في ردها، وقال: "مهلًا ياعائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله" أي في جميعها، وإن كان الانتصار بمثل ما قوبل به المرء جائز؛ لقوله: (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) [الشورى: ٤١]، فالصبر أعظم أجرًا وأعلى درجة؛ لقوله: (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) [الشورى: ٤٣]، والصبر أخلاق النبيين والصالحين، فيجب امتثال طريقتهم والتأسي بهم وقرع النفس عن المغالبة رجاء ثواب الله على ذلك، وكذلك رفقه -عليه السلام- بالأعرابي الجاهل البائل في المسجد المعظَّم المضاعف فيه الثواب على ما سواه إلا المسجد الحرام، وأمر أن لا يهاج حتى يفرغ من بوله تأنيسًا ورفقًا به، فدل ذلك على استعمال الرفق بالجاهل، وأنه بخلاف العالم في ترك اللوم له والتثريب عليه".[٧٢]

وبعد، فهذه النماذج الثلاثة عشر من صحيح الإمام البخاري التي تدل على إعلاء الإمام البخاري لقيمة التسامح في هذا الكتاب المبارك ليست بآخر الممكن، بل إن النماذج لذلك لا تحصى كثرةً في هذا الكتاب، ولكن البحث يضيق عن استقصاء ذلك، ويكفي الإشارة بهذه النماذج الثلاثة عشر لغيرها.

[٧٢] التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن (٢٨/ ٣٣٧)، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي-ط/ دار النوادر-دمشق-الأولى-١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

الْخـاتِمَة

في ختام هذا البحث المبارك لا يسعني إلا أن أذكر أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من هذا البحث، وسأصوغ ذلك في النقاط التالية:

١- الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- كما هو إمام المحدثين وشيخهم فهو كذلك إمام كبير في الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة.

٢- الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- تأثر بالسنة النبوية الشريفة فصار يحاكي هذه السنة ويعمل بها، ويطبقها واقعيًا في سائر شئون حياته.

٣- الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- تجسَّد فيه وظهر جليًا في سيرته تطبيق قول الله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} [البقرة: ٢٨٢]، فقد كانت التقوى شعاره فرزقه الله الحفظ البليغ والفهم الثاقب.

٤- كان الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- متسامحًا في أخلاقه، فكان سهل الأخلاق ليِّن الجانب.

٥- كان الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- متسامحًا في أخلاقه، فكان جوادًا كريمًا سخيًا كثير الإنفاق، فيسهل عليه بذل المال في وجوه الخير والبرّ.

٦- تسامح الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- نال جميع الناس بما فيهم مبغضوه وكارهوه.

٧- ظهر تسامح الإمام البخاري جليًا في عمله العلمي الرصين في صحيحه المبارك، فرأيناه يخرّج عن رواة يخالفونه في المذهب نظرًا لأنهم صادقون في روايتهم، ورأيناه يخرّج الأحاديث ويترجم عناوين الأبواب التي تحثُّ على التسامح وتشجع عليه.

٨- نرى العلم والأخلاق يلتقيان في شخص الإمام البخاري –رحمه الله تعالى- بصورة

واضحة بينة؛ ليعلن ذلك جليًا أن العالم إذا خلا من الأخلاق فضرُّه أقرب من نفعه.

٩- كثير من الباحثين يهتم بدراسة الجانب العلمي فقط عند علماء المسلمين في شتى مجالات العلوم، ولكن الأولى دراسة سائر الأئمة من الناحية الأخلاقية وإبرازها حتى يعطي ذلك صورة واضحة صحيحة للإسلام، وأنه دين يجمع بين العلم والعمل، وأن من لا خلق له لا قدر له مهما بلغ علمه.

١٠- ينبغي إظهار مثل هذه الأبحاث ونشرها لصدِّ الهجمة الشرسة ضد الإسلام وضد السنة النبوية في كل مكان.

وبعد، فهذا جهد مقل، وما يكون فيه من خير وصواب فمن الله ورسوله، وما يكون فيه من خطإ أو سهو فمن نفسي، والله ورسوله منه براء، وحسبنا في ذلك أن ربنا سبحانه وتعالى قضى بالأجر لمن أصاب وأخطأ، فنسأل الله -عز وجل- أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، إنه سبحانه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.[]

المراجع

القرآن الكريم.

أبو الحسن علي بن خلف ابن بطال، شرح صحيح البخاري، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم-ط/ مكتبة الرشد-الرياض-الثانية-١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، تحقيق: حسين أحمد صالح الباكري-ط/ مركز خدمة السنة-المدينة المنورة-

الأولى-١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

أبو العباس أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، -ط/ المكتبة العلمية-بيروت.

أبو الفيض محمد بن محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين-ط/ دار الهداية.

أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله محمد، وعبدالمحسن إبراهيم الحسيني-ط/ دار الحرمين-القاهرة.

أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي-ط/ مكتبة ابن تيمية-القاهرة-الثانية.

أبو القاسم علي بن الحسن ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي-ط/ دار الفكر-١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد-ط/ دار الغرب الإسلامي-بيروت-الأولى-١٤٢٢ه-٢٠٠٢م.

أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي-ط/ المجلس العلمي-الهند-الثانية-١٤٠٣هـ

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد-ط/ المكتبة العصرية-بيروت.

أبو زكريا يحي بن شرف النووي، التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، تحقيق: محمد عثمان الخشت-ط/ دار الكتاب العربي-بيروت-الأولى-١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون-ط/ مؤسسة الرسالة-الأولى-١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا-ط/ دار الكتب العلمية-بيروت-الأولى-١٤١١هـ-١٩٩٠م.

أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري، المدخل إلى كتاب الإكليل، تحقيق: فؤاد عبدالمنعم أحمد-ط/ دار الدعوة-الإسكندرية.

أبو عبدالله بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، المنثور في القواعد الفقهية، -ط/ وزارة الأوقاف الكويتية-الثانية-١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد-ط/ دار الغرب الإسلامي-الأولى-٢٠٠٣م.

أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرِين-ط/ مؤسسة الرسالة-الثالثة-١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي —ط/ دار البشائر الإسلامية-بيروت-الثالثة-١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر-ط/ دار طوق النجاة-الأولى-١٤٢٢هـ

أبو عبدالله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، مسند الشهاب، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي-ط/ مؤسسة الرسالة-بيروت-الثانية-١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

أبو محمد محمود بن أحمد بدر الدين العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، -ط/ دار إحياء التراث العربي-بيروت.

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، الآثار، تحقيق: أبي الوفا-ط/ دار الكتب العلمية-بيروت.

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، تحقيق: محمد عوامة-ط/ دار الرشيد-سوريا-الأولى-١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، -ط/ دائرة المعارف النظامية-الهند-الأولى-١٣٢٦هـ

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط/ دار المعرفة-بيروت-١٣٧٩هـ

تاج الدين عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي، الأشباه والنظائر، -ط/ دار الكتب العلمية-الأولى-١٤١١هـ-١٩٩١م.

تاج الدين عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبدالفتاح محمد الحلو-ط/ دار هجر-الثانية-١٤١٣هـ

الفكر التربوي الخلقي الصوفي عند ابن عطاء الله السكندري وتطبيقه في المؤسسات التعليمية بإندونيسيا محاولة لنشر السلام في العالم (دراسة تحليلية على كتاب الحكم العطائية)

The Sufistic Character Education according to Ibn 'Aṭāillāh al-Sakandari and It's Implementation in Educational Institution in Indonesia to Spread Prace in the World: An Analytical Study on al-Ḥikam al-'Aṭāiyyah

Mohammad Alek Mahya Shofa & Mudzakkir Ali

Senior Boarding School, Kudus & Wahid Hasyim University, Semarang – Indonesia
e-mail: aimku28@gmail.com, amudzakkirali@yahoo.com

ملخص البحث

تعانى إندونيسيا من المشاكل الأخلاقية العريضة من الفساد والغش في المدارس والانحرافات السلوكية. وهذه تحتاج إلى الحل. ورأى بعض رجال التربية الإسلامية أن التربية الصوفية هي إحدى الوسائل لعلاج المشكلات الخلقية. ومن بين أهل الصوفية من لا بد أن يشار إليه بالبنان لوضوح دوره في هذا الشأن، ألا وهو العارف بالله ابن عطاء الله السكندري، وعلى وجه الخصوص من خلال كتابه الشهير، الحكم. وهذا البحث يستهدف إلى الكشف عن تربية الأخلاقية عند هذا الصوفي الكبير. ويستخدم هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي المكتبي حيث رجع إلى الأقوال والآراء من الوثائق والمراجع المرتبطة بالموضوع مع وضع كتاب الحكم العطائية في المركز الأول، كما لا يفوتنا الرجوع إلى كتب أخرى تهتم بدراسة التصوف والقيم الأخلاقية. والنتيجة أن التربية الخلقية الصوفية هي إحدى مناهج التربية الخلقية المثلى حيث ترتكز على مجاهدة النفس وإصلاح الذات البشرية من أجل نشر السلام في العالم.

الكلمات الرئيسية: ابن عطاء الله السكندري؛ التربية الخلقية؛ الحكم العطائية؛ التصوف

Abstract

Indonesia is now facing various problems such as moral degradation, corruption, deceitfulness in schools and juvenile delinquency behavior. All of these require a solution. Most education experts argue that the Sufi-style education is one of ways to solve the moral problem. Among them is Athoillah Ibn As-Sakandari who undeniably has a significant role in this field especially through his famous work, Al-Hikam. This article tries to uncover how the role of his moral education. It uses descriptive analytical method, in which the author refers to Sufi works that talk about moral education particularly Al-Hikam. The findings are: first, the Sufi-style moral education is one of moral education methods focusing on self-empowerment and purification. It is hoped to get an improvement and even reach the level of gnosis (ma'rifat) which is in turn able to spread peace in this world. Second, Ibn Athoillah is the Sufis master who has a major role in the improvement of his pupils moral, especially through his work, Al-Hikam. Third, his thought on Sufistic education can be applied in four stages: teaching, best practice, habituation, and strengthening.

Keywords: Ibn ʻAṭāillāh al-Sakandari; moral education; al-Hikam; mysticism

مقدمة

منذ سنة ٢٠٠٢ م قررت الدراسة العديدة عن أمواج ظهور جريمة الفساد ، وأفادت أن الفساد الذي يصيب أعضاء مجلس النواب المحلي بمحافظة سومطرة الغربية تؤسفنا كثيرا . ومن ثم قررت المحكمة الوطنية الإندونيسية من سنة ٢٠٠٢ –٢٠٠٦ م بوجود ٢٦٥ جريمة التي تصيب ٩٦٧ عضو مجلس النواب المحلي في جميع أنحاء البلاد .[١]

إن مما تشيعه الأخبار المنتشرة أن مظاهر انحطاط الأخلاق تعم جميع طبقات المجتمع بإندونيسيا من صغارها إلى كبارها و من رجالها إلى نسآئها ومن رعاتها إلى مراعيها حتى شاع القول إن إندونيسيا - مهما كان تسميته بأكبر البلاد مسلما – يعد من أفسد البلاد في العالم، وحكومتها أسوء الحكومة الثانية في العالم .[٢]

ومما يجدر بالذكر أن مظاهر انحطاط الأخلاق لا تعم عوام الناس فحسب بل وقد تسللت في المدارس والجامعات و غيرها من المؤسسات التعليمية الأخرى . ما هذه الجريمة التي ارتكبها مدير المدرسة حين سرق أسئلة الامتحان النهائي الوطني من مخزن لجان الامتحان لطلبته من أجل نجاح الطلاب أو لأجل رفع مستوى المدرسة ؟[٣] . ولا ننسى ما نشرته جريدة *كومباس* عدد يوم الأثنين ٢٠ يونيو ٢٠١١ م حيث أثبت أن مشكلة الغش أو

---

[1] Dewan Perwakilan Rakyat Republik Indonesia, Laporan Pelaksanaan Tugas Panja Penegakan Hukum dan Pemerintahan Daerah, 2006.

[٢] أحمد حسين وزملاؤه، *Model Pendidikan Karakter Bangsa; Sebuah Pendekatan Monolitik di Universitas Negeri Jakarta* نموذج التربية الأخلاقية الوطنية : مقاربة أحادية في جامعة حكومية جاكرتا، ص ١

[٣] مخلص سماني وزملاؤه، *Konsep dan Model Pendidikan Karakter* التربية الأخلاقية : فكرة ونموذج، ريماجا روسدا كريا، باندونج، ٢٠١١، ص ٥

الانتحال بالجامعة أو ما اشتهر باسم (plagiarism) تصيب كثيرا من الجامات في المدن الكبيرة و من أمثالها باندونج و جوكجاكرتا و جاكرتا وغيرها.

وهناك تحديات أخرى متنوعة تواجه شبابنا اليوم فردية كانت مثل العلاقة الحرية بين الجنس اللطيف وشرب الخمر والمخدرات أو اجتماعية مثل المشاجرة بينهم والغش عند الامتحان وغير ذلك . ومما يجدر بالذكر هنا أن أكبر التحديات هو الهجمة العنيفة عليهم على الشكل التحدي الإعلامي المتمثل في مختلف الوسائل كالتلفاز من خلال إذاعته ثقافات الآخرين إلى مجتمعنا الإسلامي بكل ما تحمله من إيدولوجيات وسلوكيات ومفاهيم من خلال تشويه صور المسلم خاصة في عرض الأفلام تعني بإبراز نموذج سيئ للمسلم ووصفته بالخطير والمدمر للعقول ، وما تعززه من هدم للقيم والأخلاق.

إننا لا نستطيع أن نرفض أو نهرب أو نتجاهل هذا العالم المتغيّر سريعاً. بل علينا أن نعيشه بكل جوانبه الحلوة والمرة، متسلحين بالإيمان لنكون ملحاً للأرض ونوراً للعالم. إننا ورغم هذه التحديات قادرون أن نسمع صوت الله الذي يدعونا إلى الصلاح دائماً ، إننا بحاجة ماسة إلى تحطيم القيود والأصنام التي تقيّدنا في جاهلية الفكر والإيمان.

ومن أجل حل المشكلات التي قد سبق ذكرها، أشار العلماء الغربيون في مجال العلوم التربوية إلى أهمية التربية الخلقية أو الوجدانية إضافة إلى التربية المعرفية والنفسحركية في جميع المراحل الدراسية.[٤]

والتربية الأخلاقية وسيلة مثلى في النهوض بالأمة والرقي بها إلى سلم المجد والمعرفة

[٤] ديدي سوبريادي، *Membangun Bangsa melalui Pendidikan* بناء الشعب من خلال التربية، ريماجا روسدا كريا، باندونج، ٢٠٠٥، ص ١٢٣

والوعي والعرفان وصياغة العقول فهي تغرس القيم النبيلة والسلوك السوي الرشيد الذي هو أساس نجاح الأمم . وللتربية الأخلاقية دور حيوي مهم فهي حجر الزاوية وذات أولوية في بناء الإنسان وتطويره وبلورة مفاهيمه و إزالة التشوهات والإنحرافات.

قال الدكتور مالك فجر مصرحا إن حياة اليابان وتقدمها تعتمد على قوة الطبيعة النفسية والخلقية، وأضاف قائلا إن القنبلة النووية عند الحرب العالمية الثانية التي تصيب اليابان وخاصة بمدينة هيراسيما و نجاسكي مما تؤدى إلى انهيار شتى من مدن البلاد و ثقافتها ومواردها الإنسانية لا تعوق كثيرا لهم . من خلال القيم الفاضلة القوية من الشجاعة والمجاهدة والمحاولات المتواصلة صار اليبان اليوم من أقوى البلاد اقتصاديا وحضاريا و ثقافيا.[٥]

رأى منصور إسنا أن آثار التقدم التكنولوجي قد أظهرت منذ السنين الماضية حيث تضعف القوى الدينية والروحية لدى طلبة العلم . المشكلة الجديدة التي تحتاج إلى الحل من الجهة التربوية هي نزع الإنسانية من العملية التربوية وكذلك نزع القيم الدينية من نفوس المتربين. فعلى التربية الإسلامية أن تظهر كفائاتها لمكافحة التيارات المشوهة والآثار السلبية من تقدمات العلوم والتكنوليوجية من إحياء القيم الأخلاقية الإسلامية و القوى الروحية السليمة في حياة فردية كانت أم اجتماعية.[٦]

إن البحث عن أصل التربية في عصرنا الحالي لجدير بأن يُربط بالتصوف؛ فهو العلم الذي يهتم بالجانب التربوي والروحي في النفس الإنسانية، ويمدها بطاقة وجدانية تحرره

[٥] كومباس الجريدة اليومية، الأخلاق الضعيفة : الشعب الضعيف، ٢٥ مايو ٢٠١١

٦ منصور إسنا، *Diskursus Pendidikan Islam* الكلام عن التربية الإسلامية، جلوبال بوستاكا أوتاما، يوجياكرتا،٢٠٠١، ص ٤٥-٤٦

من نزوات المادة وشهوات النفس، وتطهيرها من الأغيار والأكدار وتحليتها بالأنوار والأسرار ، فتتحقق به المحبة الإلهية التي تجعل صاحبها ينظر بعين الرضا والرحمة والعطف والمودة ، والذي قال فيه الجنيد البغدادي سيد الطائفتين : "التصوف اجتناب كل خلق دني، واستعمال كل خُلق سني"[٧] ، وقال عنه الكتاني : "التصوف أخلاق، فمن زاد عليك في الأخلاق، زاد عليك في التصوف"[٨].

يقول الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات: قالوا : "إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، وصارت مفاتحه بأيدي الرجال" ، وهذا الكلام يقضي بأن لا بد في تحصيله من الرجال"٩ ، وهذا المعنى لا يتأتى إلا مع العلماء الربانيين من الصوفية الكرام أهل التربية والتزكية والسلوك ؛ لذلك قال ابن القيم الجوزية في المدارج : "التصوف زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وتزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى، ومعية من تحبه، فإن المرء مع من أحب"[١٠].

فكلما اطلعنا التراث العلمي عن شخصيات مشايخ الصوفية الذين لهم دور فعال في تربية أرواح السالكين والمريدين وجدنا شيخا عظيما من قطب التصوف الإسلامي هو الشيخ ابن عطاء الله السكندري . يعتبر الشيخ أكبر أهل الصوفية خاصة عند سادة الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي. حيث شهدت الأزمنة والأمكنة

[٧] اللمع، أبو نصر السراج الطوسي (ت٣٧٨هـ)، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د.ط، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص: ٢٩٦

[٨] الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري، ط٢، بيروت، ١٩٩٠م، ص: ٢٤٢ .انظر كذلك: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ٢/ ٣٢٠

[٩] الموافقات للشاطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٧، ٢٠٠٥م، ٦٤/١

[١٠] مدارج السالكين، ٣٠٧/٢

المختلفة على جهوده المستمرة في تربية المريدين ، إضافة إلى ذلك فإن للصوفي الأكبر مؤلَّفا شهيرا وقيّما في مجال التربية السلوكية ألا وهو الحكم العطائية .

هناك حجج عديدة تأتي وراء اختيار شخصية ابن عطاء الله السكندري وكتابه القيم الحكم العطائية. منها شهرة الشيخ عند السادة الصوفية و خاصة عند السالكين في الطريقة الشاذلية. كما كنا على سبيل المعرفة أنه من أعظم الشيخ جهودا في تربية السالكين ، والتاريخ لا ينسى أن السالكين المسترشدين بالشيخ لم ينته إلا بالنجاح والوصول إلى الله. ثانيا إن ما يمتاز به الحكم العطائية عن غيره اتصافه بالطرق الموصلة إلى الله. و أهم الطرق التي وضعها الشيخ تربية الأخلاق والأرواح عند المريدين. ثالثا إن من شمولة الحكم التي تتكلم كثيرا عن مجاهدة النفس هي التي يحتاجه طلبة العلم في نيل العلم وسعادة الدنيا والآخرة ، ولا سيما أن مجاهدة النفس هي العاملة الأساسية في تزكيتها و في النهاية تتصف نفوس المريدين ربانيا لا شهوانيا.

الدراسات السابقة

الرسالة الجامعية لأمير فتاح التي تقدم بها للحصول على درجة الماجستير بجامعة إندونيسيا تحت الموضوع "الحكم العطائية تحقيق على النسخة المكتوبة بلغة ملاوية على أحرف جاوية. وفي النهاية تستهدف هذه الدراسة إلى طباعة هذه النسخة ثم تنقيحها ثم شرح ما يكمن فيها انطلاقا من أهميتها ونادرتها حيث كانت اليوم مخزونة عند المتحف الوطني الإندونيسي.

دراسة محمد خالص بورانتو تحت الموضوع : إدارة القلب والحصول على التجارة الرابحة – انعكاس على الحكم العطائية، حيث ترتكز هذه الدراسة على أهمية الحكم لدي البشر كمنهج الحياة لسعادة الدنيا والآخرة.

دراسة الدكتور أبو الوفا التفتازاني عن ابن عطاء الله السكندري وتصوفه حيث تشمل على عدة أشياء عن سيرة حياة الشيخ وفكره الصوفي و منهج تصوفه.

مهما كانت كل هذه الدراسات تدرس عن الحكم، فإن لكل منها ميزات تمتاز بعضها عن بعض. أما الدراسة الأولى فهي تمتاز بالدراسة التحقيقية حيث استهدف البحث الذي نحن بصدده، إلى إبراز النسخة الأصلية كما أنها مكتوبة بلغة ملاوية على أحرف جاوية ثم تنقيحها ثم شرحها ، أما الثانية فهي العمل بأقوال الصوفي وتعاليمه في الحياة اليومية لينل السعادتين. أما الآخرة فهي تمتاز بشموليتها حيث تجمع فيه عدد ضخم عن سيرة حياة الشيخ وفكره الصوفي و منهج تصوفه.

أما دراستنا هذه فهي ترتكز على ابن عطاء الله السكندري وفكره التربوي المنبثق من تأليفه المشهور ، وبعد ذلك أراد الباحثان أن يحلل مدى فعاليته عندما يطبق في المؤسسات التربوية بإندونيسيا.

تحديد المصطلحات

١. فكلمة التربية مصدر ربى –يربى –تربية على وزن فعّل –يفعّل –تفعيلا بمعنى الرعاية والتزيين والتحسين والإصلاح.[١١] وعرف أبو فضل شهاب الدين البغدادي بأن التربية ذات معنيين هما تبليغ الشيئ إلى كماله شيئا فشيئا بحسب استعداده و إنشاء الشيئ حالا فحالا إلى حد التمام بحسب استعداده.[١٢]

[١١] ابن منظور، لسان العرب، ١٤/٣٠٤

[١٢] أبو فضل شهاب الدين البغدادي . روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني (بيروت : إحياء التراث العربي) جـــ:١ ، ص: ٧٧

أما التأديب فمصدر من كلمة أدّب –يؤدّب –تأديبا بمعنى الأدب والأخلاق بممعنى عملية غرس القيم الأخلاقية لدي الطلاب.[١٣] أما التعليم فمصدر من كلمة علّم –يعلّم –تعليما بمعنى نقل المعارف من المعلِّم إلى المتعلِّم . صرح محمد رشيد رضا قائلا إن التعليم عملية نقل المعارف والعلوم من غير حدود.[١٤]

٢. الخُلق بضم الخاء بمعنى صفات نفسية وآداب تميز أحدا من غيره[١٥]. ذكر صاحب معجم الوسيط حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر من غير حاجة إلى فكر وروية[١٦]. أما عند حجة الإسلام الإمام الغزالي بأنه عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي تصدر عنها خلقا سيئا.

فالهيئة الراسخة تقتضي أن يكون الخلق مستقرا في النفس، بحيث لا تحس إزاءه أدنى قدر من التردد، وبحيث لا يقع انقطاع بين هذه الهيئة الراسخة في النفس والسلوك الموافق لها، فالإنسان لا يوصف بالكرم أو السخاء إلا إذا كان كرمه صفة دائمة له، أما الذي يبذل المال على قلة أو ندرة مع توفر أسباب الكرم ودواعيه فإنه لا يوصف بهذا الخلق لعدم رسوخ صفة الكرم فيه.

---

[١٣] ابن منظور، المرجع السابق، ٢٠٦/١

[١٤] محمد رشيد رضا . تفسير المنار (القاهرة : دار المنار) جـ : ١ ، ص : ٢٦٢

[١٥] ابن منظور، المرجع السابق، ٨٥/١٠.

[١٦] مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، القاهرة : مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٤م ، انظر مادة "خلق".

ثم يضيف الغزالي إلى ذلك أن الإنسان لا يوصف بخلق ما إذا كان في مقام التكلف له، أو إذا كان يعاني من مشقة في فعله، بحيث تدفع إليه النفس دفعا، وتساق إليه سوقا؛ لأن ذلك يشعر بعدم تمكن الخلق في النفس، ويوحي بشيء من الكراهة أو الرفض له، ولذلك كان من شروط الخلق أن يصدر من النفس بسهولة، ودون تردد، فالذي يتكلف بذل المال أو يتكلف ضبط النفس عند الغضب بجهد ومشقة لا يقال إن خلقه السخاء أو الحلم، ولهذا فمن يدرب نفسه على الصبر ويحاول أن يقنعها به لا يوصف بأنه صابر، بل متصبر، ويظل موصوفًا بهذا الوصف إلى أن يستقر خلق الصبر في نفسه، فعندئذ يكون صابرا.

٣. أما عن كلمة التصوف فاختلف العلماء حول اشتقاق مصطلح التصوف إلى عدة أقوال، كلها لم تسلم من الانتقادات والاعتراضات ، "سُئل الشبلي رضي الله عنه: لم سميت الصوفية بهذا الاسم ؟ فقال: هذا الاسم الذي أُطلق عليهم، اختُلِف في أصله وفي مصدر اشتقاقه، ولم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمة بعدُ"[١٧].

أنه من الصوفة، لأن الصوفي مع الله كالصوفة المطروحة ، لاستسلامه لله تعالى. والصوفة أيضا اسم رجل كان قد انفرد بخدمة الله قبل الإسلام بالمسجد الحرام واسمه الغوث بن مر فنسبوا الصوفية إليه لمشابهتهم إياخ في الإنقطاع إلى الله.[١٨]

أنه من الصُفّة، لأن صاحبه تابعٌ لأهل الصُفّة الذين هم الرعيل الأول من رجال التصوف (وهم مجموعة من المساكين الفقراء كانوا يقيمون في المسجد النبوي الشريف ويعطيهم رسول الله من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم.[١٩] أي أن

[١٧] قضية التصوف المنقذ من الضلال، عبد الحليم محمود، ٢٩

[١٨] الدكتور زكي مبارك ، التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق ج: ١ ص: ٤١ بيروت

[١٩] الدكتور إبراهيم بسيوني نشأة التصوف الإسلامي ص : ٩ دار المعارف ١٩٦٩

التصوف منسوب إلى أهل الصفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لمشابهتهم إياهم في الإنقطاع لله تعالى والتجرد له والإكتفاء بالقليل وغير ذلك من أوصاف أهل الصفة التي تنطبق على الصوفية في كثير من الأمور إذ جملته اتصافه بالمحاسن وترك الأوصاف المذمومة.[٢٠]

أنه من الصفاء، وذلك لأنه لما كان الصوفية من أخص صفاتهم صفاؤهم عن الأكدار في كل الأحوال. أنه من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله؛ وتسابقهم في سائر الطاعات.[٢١]

يقول سيد الطائفة الإمام الجنيد في تعريف التصوف: "الخروج عن كل خلق دني، والدخول في كل خلق سني".[٢٢] وأضاف صاحب معجم الوسيط أن التصوف هو طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل ،لتزكو النفس وتسمو الروح.

ذكر ابن خلدون عن التصوف قائلا هو "رعاية حسن الأدب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة بالوقوف عند حدوده، مقدما الاهتمام بأفعال القلوب، مراقبا خفاياها، حريصا بذلك على النجاة".[٢٣]

منهج الدراسة

تنتهج هذه الدراسة منهج البحث المكتبي، وهو نوع من منهج البحث الوصفي الذي

---

[٢٠] إيقاظ الهمم في شرح الحكم للعلامة ابن عجيبة ص : ١٦ البابي الحلبي ١٩٦١

[٢١] الكلابذي ، التعرف بمذهب أهل التصوف ص: ٢٩ ، الأزهر ١٩٨٠

[٢٢] زكريا الأنصاري، نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية، مكتبة الإيمان، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٤

[٢٣] شفاء السائل، ص١٨١

يستند على الدراسات بالمكتبة من وثائقها ، وكتبها ، ومقالاتها.[٢٤] وكان هذا المنهج يرتكز على تحليل المصادر والوثائق ثم استنباطها وتنقيحها و تأليفها حسب الدراسة المنشودة. أو كما أشار إليه مستيكا زيد قائلا إن الدراسة المكتبية لا تعنى بقراءة المراجع وكتابتها فحسب، بل تعنى بجميع الأنشطة يتتعلق بجمع المراجع والمصادر ثم قراءتها ثم تنقيحها وتحليلها ثم تأليفها.[٢٥]

أما المصادر فتتكون من الكتب والمنشورات والدراسات العلمية التي لها صلة قوية بالدراسة المقصودة. يستخدم المؤلف في هذه الدراسة عددا كثيرا من المراجع أساسية كانت أوثانوية . من المراجع الأساسية هي كتاب الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري ، وأما المراجع الحاجية تتكون من الكتب والنشرة العلمية والمقالات والدراسات التي تتعلق بموضع الدراسة.

أما من ناحية تحليل الوثائق يستخدم البحث منهج تحليل المحتويات. عرف ويبر بأنه المنهج الذي يستخدم مجموعة من الإجراءات لأجل استنباط صحيح من الوثائق. أما هوستلي يعرف بأنه عملية خاصة لاستنباط الحكم للحصول على المعنى المقصود عن طريق منظم و موضوعي.[٢٦]

وبعد ذلك تأتي أهمية المنهج الاستقرائي حيث جمع فيه كلام ابن عطاء الله السكندري

---

[٢٤] محمد إقبال حسن، *Pokok-pokok Materi Metodologi Penelitian* مصادر منهج البحث، جاليا إندونيسيا، جاكرتا، ٢٠٠٢م، ص ١١

[٢٥] ميستيكا زيد، *Metode Penelitian Kepustakaan* منهج البحث المكتبي، مؤسسة أوبور إندونيسيا، ٢٠٠٨م، ص ٣

[٢٦] ليكسي ج موليونج، *Metodologi Penelitian Kualitatif* منهج البحث النوعي، ريماجا روسدا كريا، باندونج، الطبعة السادسة عشرة، ص ١٦٣

وأفكاره المتعلقة بالدراسة المورودة في الحكم حتى تستنبط الأفكار الجامعة والمانعة. وفي النهاية وصلنا إلى حد التعريف بلأفكار التربوية الخلقية الصوفية لابن عطاء الله السكندري.

التربية الخلقية (القيم الفاضلة) عند القانون التربوي الوطني الإندونيسي

ذكر الحاكم الرومي *ماركوس توليوس تجيتجيرو* (١٠٦-٤٣ ق م) قائلا "إن طيبة البلدة ورفاهيتها تستند على القيم الفاضلة القوية لدي شعبها"[٢٧]. عنى به القول إن القيم الفاضلة القوية تؤثر على نمو البلاد وتقدمها . ومثال ذلك الهند والصين والبرازيل ، وبالعكس إن البلاد التي تسعى من غير القيم الفاضلة القوية انحطت إلى أدنى مرتبة ومثال ذلك اليوناني اليوم وبعض البلاد بقارة أسيآ وإفريقيا، فكادوا لا يدورون بأي دور فعال في تنمية العالم و حضارتها بل يعد كثير أنهم من بلاد فاشلة.[٢٨] ولقد أكد عن هذا *أرنولد طاينبي* قائلا إن انهيار تسع عشر بلدة من واحد وعشرون بلدة في العالم لا تسببه العوامل الخارجية بل العوامل الداخلية ألا وهي ضعف القيم الفاضلة ".[٢٩]

ولكن هناك تساؤلات ، هل من الممكن تغيير الطبيعة ، بمعنى هل الأخلاق فطرية

---

[٢٧] توماس ليكونا، *Character Matters* المواد الخلقية، سومون وشوستر، نيو يورك، ٢٠٠٤، ص ٤

[٢٨] سابتونو، *Dimensi-dimensi Pendidikan Karakter; Wawasan, Strategi, dan Langkah Praktis* أبعاد التربية الخلقية : النظرة والاستراتيجية والخطوات التطبيقية، إيرلانجا، جاكرتا، ٢٠١١، ص ١٦

[٢٩] ليكونا، المرجع السابق، ص ٤

موهوبة من لدن حكيم عليم أو مكتسبة قابلة للتغيير؟ إن الفلسفة الأخلاقية في الفكر الغربي "الحديث" تتميز بسيادة اتجاهين فلسفيين مختلفين: اعتبر أصحاب الاتجاه العقلي أن الأخلاق فطرية؛ إذ " يذهبون إلى أن الإنسان يولد مزودا بأفكار نظرية وحقائق بسيطة تذكرك بالحدس إدراكا مباشرا دفعة واحدة من غير مقدمات، ومن غير الاستعانة بالتأمل العقلي، ومن هذه الحقائق البسيطة التي تدرك بهذا النور الفطري يتمكن الإنسان من استنباط حقائق أخرى"[٣٠] فأصحاب هذا الاتجاه يؤكدون على أن الإنسان يولد مزودا بأخلاق مغروسة فيه بالفطرة، تمكنه من التمييز بين الخير والشر والحق والباطل.

وأما الاتجاه التجريبي: فإنهم - على عكس الاتجاه العقلي - يقولون: إن الأخلاق مكتسبة، ومن ثم جاء " رفضهم لكل معرفة أولية أو قبلية، وقالوا: لا شيء في العقل إلا وقد مر بالحس والتجربة أولا ... وعليه فإن الأخلاق يجب أن تعالج بمناهج تجريبية خالصة؛ لأن التجربة هي المقياس الوحيد الذي يمكن من التمييز والتفرقة بين الحق والباطل والخير والشر؛ إذ الأخلاق وليدة الظروف الاجتماعية والدينية والاقتصادية التي تحيط حياة الفرد وتكتنف حياة المجتمعات"[٣١].

وصل هذا البحث إلى أن الأخلاق قابلة للتغيير وذلك أنه "لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن؛ إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلامة والانقياد، وكل ذلك تغيير

[٣٠] الدكتور زكرياء إبراهيم المشكلة الخلقية، مكتبة مصر القاهرة، ط١، س١٩٨٠م، ص٢٣.

[٣١] وفيق الطويل: أسس الفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٩م، ص٤٢٦، بتصرف

للأخلاق"[٣٢]. من أجل ذلك أن التربية الأخلاقية هي الطريقة المثلي في غرس القيم الأخلاقية لدي الطلاب ثم تتميمها إلى مكارم الأخلاق كما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

ولا ريب فيه أن مثقفي هذه البلدة يؤكدون من واسطة بيت من أبيات النغم الوطني *إندونيسيا رايا* بتقديم جملة "قم روحيا (خلقيا)" قبل ذكر "قم جسديا". يورد هذا البيت على الشعب الإندونيسي أن يبنوا القيم الأخلاقية قبل بناء المادة من الأبدان والأجساد. وهذا مفتاح نجاح إندونيسيا.[٣٣]

أشار العلماء في مجال العلوم التربوية إلى أهمية التربية الخلقية في جميع المراحل الدراسية . والتربية وسيلة مثلى في النهوض بالأمة والرقي بها إلى سلم المجد والمعرفة والوعي والعرفان وصياغة العقول فهي تغرس القيم النبيلة والسلوك السوي الرشيد الذي هو الأساس في نجاح الأمم . وللتربية الاخلاقية دور حيوي مهم فهي حجر الزاوية وذات أولوية في بناء الانسان وتطويره وبلورة مفاهيمه و إزالة التشوهات والانحرافات.

إضافة إلى ذلك أكد رئيس جمهورية إندونيسيا السادس سوسيلو بامبانج يودويونو عن أهمية التربية الخلقية قائلا إن هناك خمسة أهداف تستهدف إليها التربية الخلقية بإندونيسيا منها : (١) إنشاء الشعب ذوي خلق عظيم. (٢) إنشاء الشعب ذوي عقل سليم. (٣) إنشاء الشعب ذوى الإبداع والاختراع. (٤) إنشاء الشعب المتفائلين الموثقين بأنفسهم. (٥) إنشاء الشعب المحبين لوطنهم[٣٤]

---

[٣٢] الغزلي أبو حامد: إحياء علوم الدين، ط دار الكتب لعلمية، د، ت، لبنان، ج٣، ص٦١

[٣٣] سابتو نو، *Dimensi-dimensi Pendidikan Karakter....*

[٣٤] نورلا إسنا عون الله، *Panduan Menerapkan Pendidikan* Karakter *di Sekolah* دليل تطبيق التربية الخلقية في المدرسة، لاكسانا، يوجياكرتا، ٢٠١١، ص ٩٧-١٠٤

عرفت وزارة التربية والتعليم بجمهورية إندونيسيا بأن التربية الخلقية تستهدف إلى إنشاء البلدة القوية المتسابقة المتحلية بالأخلاق الكريمة المتسامحة والمتعاونة المهتمة بالعلوم والتكنوليوجية التي أسست على الإيمان بالله وتقواه تحت قيادة بانجاسيلا.[٣٥]

تحقيقا لآمال الوطن في غرس القيم الأخلاقية لدي أبناء البلد كما أشار إليه بانجاسيلا ودستور ١٩٤٥ بجمهورية الإندونيسيا ولأجل انقاذهم من الانحطاط الأخلاقي جعلت الحكومة التربية الخلقية من أولويات التنمية الوطنية. وكانت تلك الخطة وردت في خطة تنمية بعيدة الأمد ٢٠٠٥-٢٠٢٥ م. حيث جعلت التربية الأخلاقية أساسا في تحقيق أهداف التنمية الوطنية هي تحقيق أبناء الشعب المتحلين بالأخلاق الكريمة المؤدبين المثقفين بثقافة بانجاسيلا.

اعتمادا على دراسة القيم الدينية والقوانين الاجتماعية والآداب التربوية وأصول الحقوق الأساسية الإنسانية تخلصت خمس قيم أخلاقية التي تستهدف التربية الخلقية الوطنية إليها منها :

١. القيم الخلقية الألوهية أو الدينية أي أن جميع ما يفعله الطالب وما يقوله تعتمد على الشرائع الدينية المعتنقة
٢. القيم الخلقية الذاتية أي ذات صلة بالنفس منها الصدق والمسؤولية والمواظبة والجهد والوثق بالنفس وغير ذلك
٣. القيم الخلقية الاجتاعية مثل التعرف بحقوق الآخرين واحترام الغير.
٤. القيم الخلقية البيئية أي آداب الطالب مع البيئة التي يعيش فيها الطالب من نظافتها وابتعادها عن المهالك.

---

[٣٥] وزارة التربية القومية، *Pedoman Pelaksanaan Pendidikan Karakter (Berdasarkan Pengalaman di Satuan Pendidikan Rintisan)* دليل تطبيق التربية الخلقية بناء على التجربة في وحدة التربية الريادية، مجمع البحث والتنمية المركزي للمناهج الدراسية والمكتبية، ٢٠١١، ص ٢

٥. القيم الخلقية الوطنية تعنى بها غرس شعور حب الوطن حتى يضع الأمور الوطنية على الاحتياجات الشخصية.

التربية الخلقية الصوفية

إن البحث عن أصل التربية الخلقية في عصرنا الحالي لجدير بأن يربط بالتصوف، فهو العلم الذي يهتم بالجانب التربوي والروحي في النفس الإنسانية، ويمدها بطاقة وجدانية تحرره من نزوات المادة وشهوات النفس، وتطهيرها من الأغيار والأكدار وتحليتها بالأنوار والأسرار، فتتحقق به المحبة الإلهية التي تجعل صاحبها ينظر بعين الرضا والرحمة والعطف والمودة.

والذي قال فيه الجنيد البغدادي سيد الطائفتين "التصوف اجتناب كل خلق دني، واستعمال كل خُلق سني".[٣٦] وقال عنه الكتاني: "التصوف أخلاق، فمن زاد عليك في الأخلاق، زاد عليك في التصوف".[٣٧]

إن من أهمية التصوف كمنهج التربية الخلقية هو ما ذكره ابن خلدون عن التصوف قائلا هو "رعاية حسن الأدب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة بالوقوف عند حدوده، مقدما الاهتمام بأفعال القلوب، مراقبا خفاياها، حريصا بذلك على النجاة".[٣٨]

ولذا تتبلور قواعد وأسس الأخلاق والسلوك العملي لدي أصحاب الإتجاه الخلقي الصوفي في

[٣٦] اللمع، أبو نصر السراج الطوسي (ت٣٧٨هـ)، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د.ط، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص: ٢٩٦.

[٣٧] الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري، ط٢، بيروت، ١٩٩٠م، ص: ٢٤٢ .انظر كذلك: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ٢/ ٣٢٠

[٣٨] شفاء السائل، ص١٨١

الأسس التالية:[٣٩]

١. تزكية النفس

هي عبارة عن تطهير لنفس المريدين من أدرانها وأوساخها الطبعية والخلقية، وتقليل قبائحها ومساويها، وزيادة ما فيها من محاشن الطبائع، ومكارم الأخلاق. كانت تزكية النفس في التصوف لا تتم إلا بالدور الثنائي بين الشيخ والمريد.

فالشيخ هو الأستاذ للمريد والأسوة والقدوة. إذا كانت شخصية المريد ثاني الملامح في طريق الخلق والسلوك العملي، فإن الشيخ أولهما وذلك لأنه أساس التربية الخلقية العملية لدى الصوفية، وعنه يتلقى المريد آدابه ويتخلق بأخلاقه وذلك لأنه سلك طريق الحق وعرف المخاوف والمهالك، فيرشد المريد ويشير إليه بما ينفعه وما يضره.[٤٠]

والشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقية والبالغ إلى حد الكمال فيها لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدواتها ومعرفة دوائها وقدرته على التوجيه في شفائها والقيام بهداها إن استعدت ووفقت لاهتدائها في طريق البناء بالخلق والسلوك.[٤١] ولا مغالاة لو قلنا إن الشيخ بمثابة الطبيب عند المريض.

أما المريد فسالك الطريق عن نظر واستبصار وتجرد عن إرادته إذ علم أنه ما يقع في الوجود إلى ما يريده الله تعالى لا ما يريده غيره فيمحو إرادته فلا يريد إلا ما يريده الحق. فينبغى له أن يكون مع شيخه كالميت بين يدي الغاسل، لا تدبير له في نفسه ولا يدفع عن نفسه شيئا مما يريده الشيخ.

---

[٣٩] الدكتور سامي عفيفي حجازي، دراسات في التصوف والأخلاق، ط جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة ص ٤٧

[٤٠] الدكتور عبد المنعم الحفنى، معجم مصطلحات الصوفية. ص ١٤٢، ١٩٨٠

[٤١] الشيخ كمال الدين عبد الرزاق القاشاني، اصطلاحات الصوفية ص. ١٥٤ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ م

٢. صحة الاقتداء

من أهمية صحة الاقتداء أنها تضيئ للسالك ما يكمن في فطرته التي فطره الحق تبارك وتعالى عليها. وإن صحة الاقتداء لا تتم إلا باتباع الشيخ ظاهرا وباطنا. كما أشار إليها عز وجل "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم"، فمنزلة الشيخ في هذا الصدد كمنزلة النبي على المريد، أي على المريد أن يتبع الشيخ اتباعا تاما كاتباع سيدنا عمر رضي الله عنه إلى النبي حين يراه يقبل الحجر الأسود في قوله "إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك".

وفي عصرنا اليوم أن صحة الاقتداء بالشيخ تتم من خلال اعتنافهم بالطريقة. فكان لا بد من أخذ الطريقة من يد شيخ مأذون. لأن هذه الطريقة مستنبطه من الشريعة المطهرة لا تحيد عنها قيد أنملة. لأنها في الحقيقة تكوين النفس الإنسانية وفق الهيئة التي كان عليها السلف الصالح من هذه الأمة. ذلك أن الشيخ المسلك للطريقة لا يجوز أن يكون مسلكا إلا إذا كان مأذوناً من شيخ مسلك مأذون كذلك وهكذا دواليك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي إذن أسلوب تربوي نبوي مأخوذ من جماعة عن جماعة عن جماعة وهكذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالمسلم عندما يضع يده بيد شيخ يبايعه على الإلتزام بالطريقة كأنما يضع يده بيد رسول الله لأنه يعاهد شيخه على الإلتزام بالشريعة المطهرة.

٣. المجاهدة

ذكر الدكتور عبد المنعم الحفنى أن المجاهدة هي بذل النفس في رضا الحق وقيل فطام النفس عن الشهوات ونزع القلب عن الأمانى والشبهات.[٤٢] يعتبر العلماء أن مجاهدة

[٤٢] الدكتور عبد المنعم الحفنى ، معجم مصطلحات الصوفية . ص ١٠٤

النفس بداية الطريق إلى الله على أنه بدونها لا يتحقق سير السائرين وذلك لأن المسافة بين العبد وبين لقاء ربه سبحانه وتعالى هي عمره وكلما مضى من عمره لحظة انتقل إلى ربه مرحلة كما يقول ابن عطاء الله السكندري في حكمة من حكمه "لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك".

وكان الصوفيون يبنون طريقهم على هذا المنطلق منهم أبو طالب المكي في قوت القلوب والسهروردي في عوارف المعارف وكذلك الإمام الغزالي في موسوعته الإحياء علوم الدين. إنهم يعتقدون أنه لا صفاء إلا عن طريق مجاهدة البدن والقضاء على شهواته ، وهذا ما بينه الإمام الجنيد حين سئل متى يصير النفس دوائها ؟ فأجاب بقوله إذا خالفت هواها.[٤٣] وأضاف الأخرون أن من شأن مجاهدة النفس أن لا تأكل إلا عند الفاقة ولا تنم إلا عند الغلبة ولا تتكلم إلا عند الضرورة.[٤٤]

ومن هذه التحديدات السابقة لبيان قيمة الرياضة ومجاهدة النفس في بناء الطريق الخلقي عند الصوفي فإنها لديهم فرض عين من باب لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما أشار إليه النابلوسي " المجاهدة للنفس عبادة ولا تحصل إلا بالعلم وهي فرض عين على كل مكلف".[٤٥]

هذا هو التصوف، إنه منهج التربية الروحية والسلوكية الذي يرقى به المسلم إلى مرتبة الإحسان، التي عرفها النبي صلى الله عليه وسلم "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن

[٤٣] الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن القشيري، ط٢، بيروت، ١٩٩٠م، ص: ٢٤٢

[٤٤] المرج السابق

[٤٥] الشيخ عبد الغني النابلوسي شرح الطريقة المحمدية جـــ ١، ص ٣٢٣

تراه فإنه يراك". فالتصوف برنامج تربوي، يهتم بتطهير النفس من كل أمراضها التي تحجب الإنسان عن الله عز وجل، وتقويم انحرافاته النفسية والسلوكية فيما يتعلق بعلاقة الإنسان مع الله ومع الآخر ومع الذات.

والطريقة الصوفية هي المدرسة التي يتم فيها ذلك التطهير النفسي والتقويم السلوكي، والشيخ هو القيم أو الأستاذ الذي يقوم بذلك مع الطالب أو المريد .فالنفس البشرية بطبيعتها يتراكم بداخلها مجموعة من الأمراض مثل : الكبر، والعجب، والغرور، والأنانية، والبخل، والغضب، والرياء، والرغبة في المعصية، والخطيئة، والرغبة في التشفي والانتقام، والكره، والحقد، والخداع، والطمع، والجشع. ومن أجل ذلك فطن أسلافنا الأوائل إلى ضرورة تربية النفس، وتخليصها من أمراضها لتتواءم مع المجتمع وتفلح في السير إلى ربها. وهذا طبعا يؤدي إلى نشر السلام في العالم.

ابن عطاء الله السكندري وفكره التربوي

اسمه أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله وأنه يلقب بتاج الدين وبأبي الفضل[٤٦] وبأبي العباس[٤٧]. وانفرد ابن عجيبة في ذكر اسمه ونسبه بشيئ من التفصيل ، فقال : أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله.[٤٨]

ولد ابن عطاء الله السكندري بمدينة الإسكندرية حيث كانت أسرته يقيمون فيها

[٤٦] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى جـــ ٥ ، ص ١٧٦

[٤٧] ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب ص ٧٠

[٤٨] إيقاظ الهمم ، جـــ ١ ص ٩

وكان جده مشتغلا بتدريس الفقه. ومما يجدر بالذكر أن لا أحد يعرف السنة التي ولد فيها على وجه التحديد ، إذ لم يتعرض واحد من كتاب التراجم لذكرها.[٤٩] ولكن الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازاني استنبط أن مولد الكريم سنة ٦٥٨ هـ، وذلك من خلال قول ابن حجر العسقلاني أنه توفي كهلا[٥٠]. فالكهلة عند صاحب القاموس المحيط من جاوز الثلاثين أو أربعا وثلاثين إلى إحدى وخمسين[٥١]. كانت صحبته لشيخه المرسى بدأت سنة ٦٧٤ هـوأنه في هذه السنة شابا ناشئا بما سبق ، إن كان المراد بالكهل هو ثلاثين (فمولده ١٧٩ هـ) فهذا لا يمكن إذ أنه يولد أربعة أعوام بعد صحبته للشيخ. إذن من المعقول أن يكون معنى الكهل هو إحدى وخمسين سنة بمعنى أنه ولد سنة ٦٥٨ هـ[٥٢]

ولد ابن عطاء الله ونشأ إذن في النصف الثانى من القرن السابع الهجري. ويمكننا أن نميز في حياته بين ثلاثة أطوار : طوران منها بمدينة الإسكندرية وطور ثالث بمدينة القاهرة. وفي الطور الأول من أطوار حياته بمدينة الإسكندرية كان ينكر على الصوفية انكارا شديديا تعصبا لعلوم الفقهاء. وفي ذلك يقول عن نفسه : ".... وكنت أنا لأمره (الشيخ المرسي) من المنكرين وعليه من المعترضين .... حتى جرت مقاولة بيني وبين أصحابه ، وذلك قبل صحبتي إياه ، وقلت لذلك الرجل : ليس إلا أهل العلم الظاهر ، وهؤلاء القوم (الصوفية) يدعون أمورا عظيمة وظاهر الشرع يأباها ....".[٥٣]

---

[٤٩] الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، ابن عطاء الله السكندري وتصوفه مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٩ ص ١٦

[٥٠] الدرر الكامنة جـــ ١ ، ص ٣٧

[٥١] الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، مادة كهل

[٥٢] الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، المرجع السابق ص ١٨

[٥٣] لطائف المنن : ص ٧٩

وفي الطور الثاني من عمره فقد زال إنكاره وتعصبه لأهل العلم الظاهر حين لقي أستاذه المرسي فأعجب به إعجابا عظيما وأخذ عنه طريق الصوفية . ومما يجدر بالذكر هنا ، مهما كان اعتناقه بالطريقة الشاذلية فإنه لا ينقطع النشاطة العلمية التي مارسها ، وإنما ظل يطلب العلوم الدينية بتوجيه شيخه له.[٥٤] وذلك من استنباط قول شيخه المرسي حيث صرخ قائلا : "...نحن إذا صحبنا تاجرا ما نقول له اترك تجارتك وتعال ، أو صاحب صنعة ما نقول له اترك صنعتك وتعال أو طالب علم اترك طلبك وتعال ، ولكن نقر كل أحد فيما أقامه الله فيه ...".[٥٥]

وقال العلماء إن سعة بحر علوم ابن عطاء الله لا ساحل له وذلك يحصل من خلال جهده في طلب العلم على أيدي العلماء الأجلاء في عصره منهم الفقيه ناصر الدين بن المنير الجروى الجذامي الإسكندري في الفقه والعربية و الأبرقوهي في الحديث والمحي المازوني في النحو والإمام الحافظ شرف الدين أبي محمد عبد المؤمن بن خلف في علم الحديث والشيخ شمنس الدين الأصبهاني في المعقولات كالفلسفة والمنطق والكلام.

أما في الطور الثالث من حياته بدأ من رحلته من مدينة الإسكندرية إلى القاهرة في بضع سنين قبل وفات شيخه المرسي. وكان ابن عطاء الله في هذا الطور مشتغلا بالتدريس والوعظ بأكبر الجامعات في ذلك العصر ألا وهي جامعة الأزهر الشريف وفي نفس الوقت أنه وارث المشيخة الشاذلية الذي ينبع منه المدد والإشراقات بعد انتقال شيخه المرسي إلى الرفيق الأعلى.

ولقد تخرج على يدى ابن عطاء الله جملة من الفقهاء والصوفية ، من أشهرهم الإمام

[٥٤] الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، المرجع السابق ص ١٩

[٥٥] لطائف المنن : ص ٦٦-٦٧

تقي الدين السبكي والد تاج الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية الكيرى و ابن باخلا خليفته في الطريقة الشاذلية وأبو الحسن على القرافي وهكذا تتلمذ على ابن عطاء الله من هم في طبقة الأئمة حيث يدل على علو منزلته.[٥٦]

ولابن عطاء الله السكندري مصنفاته المشهورة. وأهمها على سبيل الأمثلة الحكم العطائية والمناجاة العطائية و التنوير في إسقاط التدبير ولطائف المنن وتاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس والقصد المجرد معرفة الإسم المفرد مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح وعنوان التوفيق في آداب الطريق والرسائل الأخرى التى تتكلم عن شتى العلوم من الفقه والتصوف المعقولات وغيرها.

اعتبر الحكم من أهم مصنفاته إذ به يعرف فكره الصوفي. فقد ذكر حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون أنه لما صنفها عرضها على شيخه المرسى فقال له : يا بني لقد أتيت في هذه الكراسة بمقاصد الإحياء وزيادة.[٥٧]

تمتاز الحكم العطائية في تقديمها بأسلوب الخطاب الموجه إلى المريد السالك لطريق الصوفية تنبيها إلى قواعد السلوك التى ينبغى مراعاتها . وليس في فقراتها أي ارتباط منطقي كما لم يراعى صاحبها ترتيبها بحسب موضوعاتها وإنما هي عبارات معبرة عن خطرات نفسه التى عرضت له في أذواقه فدونها بغير تعمل تصنيف أو تكلف تأليف .

ويعنى ابن عطاء الله في حكمه بالإكثار من الأخيلة مثل "لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية ، إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق وليس

[٥٦] الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، المرجع السابق ص ٢٧

[٥٧] حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، مطبعة المعارف التركية ١٩٤١ جـــ ١ ص ٦٧٥

منه ، تارت تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك وتارة يقبض ذلك عنك فيردك إلى حدودك ، فالنهار ليس منك ولكنه وارد عليك" . والتشبيهات مثل "إدفن وجودك في أرض الخمول ، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه" . والاستعارات مثل "ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط ، لا تدرون أيهم أقرب لكم منه نفعا".

وبالمحسنات اللفظية كالسجع مثل "عنايته فيك لا لشيئ منك وأين كنت حين واجهتك رعايته وقابلتك رعايته؟ لم يكن في أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلى محض الأفضل وعظيم النوال" والجناس مثل "حقوق في الأوقات يمكن قضائها ، و حقوق في الأوقات لا يمكن قضائها إذ ما من وقت إلا والله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد ، فكيف تقضى فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه".

ويستخدم أحيانا المقابلة مثل " رب معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا" ، ويكثر من صيغة الاستفهام المقترنة بالتعجب مثل " كيف يشرق القلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟"، وفي أحيان قليلة جدا يلجأ إلى التسلسل المنطقي مثل " الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إذ لو حجبه شيئ لستره ما حجبه ، ولو كان له ستر لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشيئ فهو له قاهر ، وهو القاهر فيق عباده".

ذكر الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى حيث يتكلم الشيخ ابن عطاء الله كثيرا عن قواعد السلوك لدى المريدين و خلاصة آرائه الصوفية. ومهما كان الأمر كذلك فإن الباحثين رأيا فيها الأفكار التربوية الصوفية الصالحة لإصلاح القيم الأخلاقية وخاصة

عند تأديب الناشئين في سنين تعلمهم بالمئسسة التعليمية ، أهمها ما يلى:

١. مفهوم العلم

ذكر ابن عطاء الله في حكمته الـ٢٣١ أن "العلم النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعائه وينكشف به عن القلب قناعه". قال ابن عجيبة في شرح هذه الحكمة هو علم القلوب ومرجعه إلى تصفية القلوب من الرذائل وتحليتها بالفضائل أو تقول مرجعه إلى التخلية والتحلية فيبحث أولا عن عيوب النفس وعيوب القلب وعيوب الروح وعيوب السر فيطهر كل واحد من عيوبه فإذا تطهر من الجميع تحلى بصفات الكمال كالإيمان والإيقان والطمأنينة والمراقبة والمشاهدة وتحلى أيضاً بالحلم والرأفة والسخاء والكرم والإيثار وسائر الأخلاق الحسنة. فشعاع العلم الذي ينبسط في الصدر هو ثلج اليقين وبرد الرضى والتسليم وحلاوة الإيمان ومواجيد العرفان وينشأ عن ذلك مخافة الله وهيبته والحياء منه والسكون والطمأنينة وغير ذلك مما تقدم من الأخلاق الحسنة والقناع الذي ينكشف به عن القلب هو الغفلة وسبب الغفلة هو الرضى عن النفس وسبب الرضى عن النفس هو حب الدنيا الذي هو أصل كلك خطيئة فمن حب الدنيا ينشأ الحسد والكبر والحقد والغضب والشح والبخل وحب الرياسة والقساوة والفظاظة والقلق وغير ذلك من العيوب.

ثم أكد ابن عطاء الله بحكمتيه التاليتين قائلا "خير العلم ما كانت الخشية معه العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك" ذلك لأن العلم الذي تصحبه الخشية يمنع صاحبه من الغفلة وأسبابها ويزهده في كل ما يشغل عن العمل به ويرغبه في كل ما يقربه إلى ربه فيكون عوناً له على الوصول إلى معرفة الله والقريب من ساحة رضاه ، فإن لم تقارنه الخشية كان وبالا عليه لأنه حينئذ حجة عليه لأن المعصية مع العلم أقبح من المعصية مع الجهل وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال ويل للجاهل مرة وويل للعالم إذا لم

يعمل عشر مرات ذكره الغزالي.[٥٨]

ومن هذا المنطلق ندرك أن العلم الذي يريده صاحب الحكم هو العلم الذي يرتكز على اصلاح الذات. فالذات الصالحة تتوقف على صلاحية المضغة الموجودة فيها ألا وهي القلب. فعلى طلاب العلم أول بدء قبل بداية التعلم هو تصفية القلب من رانه ولا سيما في التربية الخلقية فإن محوار البحث فيه هو تزكية القلب من كوادره فإذا صلح، صلح الجسد كله.

٢. مفهوم المعلم وأهليته

مهما كانت الحكم العطائية وعظ للمريدين السالكين فإن فيها أيضا نقط تتكلم عن آداب العالم الذي في نفس الوقت يكون معلما، والمعلم عند الصوفية يطلق بالشيخ. يذهب ابن عطاء الله إلى أنه لابد للسالك المقبل على مجاهدة النفس من أن يسترشد بهدى شيخ عارف، فبيخضع له خضوعا تاما وإلى هذه الإشارة بقوله "فكل من لم يكن أستاذ يصله بسلسلة الأتباع ويكشف عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له ..."[٥٩]. وأكد القشيري أيضا عن أهمية الشيخ قائلا "ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدا"[٦٠]. يقول أبو على الدقاق " إن الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنه تورق لكن لا تثمر، وكذلك المريد إذا لم يكن له شيخا يأخذ منه طريقته نفسا عن نفس، فهو عابد هواه، لا يجد نفاذا"[٦١].

ووظيفة الشيخ عند صوفينا ليس مجرد التعليم أي نقل معارف الشيخ إلى ذهن المريد بل عليه أن يعرف برعونات نفسه وكمائنها ودفائنها ويدله على الله ويعلمه الفرار عما سواه.

---

[٥٨] ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم مطبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥ ص ٤٨٥

[٥٩] لطائف المنن : ص ١٦٦

[٦٠] الرسالة القشيرية : ص ١٨١

[٦١] نفس المرجع

والشيخ المرشد الدال على الله لا يدل عليه بعبارات أو أقوال يوجهها إلى السالك فحسب ، وإنما يدل على الله بما يسرى من إشاراته الذوقية وأحواله الباطنية في نفس السالك بحيث يحرره من هوى نفسه ويجلو مرآة قلبه حتى يوصله إلى الله، حيث قال "ليس شيخك من سمعت منه إنما شيخك من أخذت عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، وإنما شيخك الذي سرت فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، وإنما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجاب. وليس شيخك من واجهك مقاله، وإنما شيخك الذي نهض بك حاله. شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى. شيخك هو الذي ما زال يجلوا مرآة قلبك حتى تجلت فيها أنوار ربك. أنهضك إلى الله فنهضت إليه. وسار بك حتى وصلت إليه. ومازال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه فزجَّ بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك"[٦٢]. إلى هذا واضح لنا أن من أهلية الشيخ الحقيقية هي الأهلية الإلهية بمعنى أنه لا يمكن للشيخ أن يمتلك هذه الأهلية إلا من مدد ربه حتى يحصل الشيخ على درجة الإذن منه كما أشار إليه صوفينا في حكمته الـ ١٨٤ قائلا "من أذن له في التعبير فهمت في مسامع الخلق عبارته وجليت إليهم إشارت".

وهناك وظيفة هامة يؤديها الشيخ من الناحية السيكولوجية وأشار إليه ابن عطاء الله وهي الإقناع فقد يحدث أن يتوهم المريد وجود أمراض في نفسه ، فإذا كشف عنها لشيخه ، ورأى الشيخ أنها ليست أمراضا حقيقية اقنع المريد بهذا، فحقق له شفاء نفسه. أما إذا تبين الشيخ من مريده أمراضا حقيقية فإنه في هذه الحالة يقوم بعلاجها علاجا نفسيا دقيقا بحيث يزيلها عنه إزالة تامة.[٦٣]

[٦٢] لطائف المنن : ص ١٦٧

[٦٣] الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، المرجع السابق ص ١٧٣-١٧٤

٣. آداب المتعلِّم

هناك مصطلحات كثيرة تعنى بالمتعلم منها الطالب والتلميذ والمريد. ففي هذه الوهلة أن كلمة المريد انسب من غيرها ، ذلك لأن المريد اسم فاعل من أراد – يريد فهو مريد. فالمريد هو الشخص الذي يريد أشياء كثيرة (العلوم والمعارف) من شيخه. للمريد آداب ، فبالأدب يحصل المريد على ما يرام . ومن آداب المريد ما يلي:

أ. الطاعة والإتباع للشيخ في جميع الأحوال

ينبغى له أن يكون مع شيخه كالميت بين يدي الغاسل ، لا تدبير له في نفسه ولا يدفع عن نفسه شيئا مما يريده الشيخ. فإذا وفق المريد إلى شيخ ، وأراد مجاهدة نفسه والخلاص عن عيوبها وآفاتها فليس ثمة حرج في أن يكشف لشيخه عن جميع الآفات والعيوب وذلك لأن المريد كالمريض على يدي الطبيب.[٦٤] والمتأمل فيما صور به شيخنا هذه العلاقة ، يتبين له أن صلة الشيخ بالشيخ صلة روحية ، فالمريد ينبغى أن يكون محترما لشيخه كل الإحترام ومنفذا لجميع ما به في التربية.

ب. رياضة النفس

أشار ابن عطاء الله إلى أن رياضة النفس هي المجهود الشاق الذي يبذله المريد ليتخلص من آفات النفس وعيوبها الذميمة كالرياء والحسد وحقد وغيرها وما إليها من الصفات الأخلاقية السيئة. والأساس الذي تقوم عله رياضة النفس عند ابن عطاء الله هو النظر إلى أوصاف الله تعالى ومحاولة التشبه بها على قدر الطاقة الإنسانية ، ولذا يبين ابن عطاء الله للمريد أنه لن يخرجه عن وصفه الذميم إلا شهوده لوصف الله ، وإليه الإشارة بقوله : " لا يخرجك عن الوصف إلا بشهود الوصف" . والتخلق بإخلاق الله هو سبيل المريد إلى

[٦٤] لطائف المنن : ص ٩٨

السعادة الحقة، حيث يقول الشيخ في القصد المجرد :" .... سعادة العبد وخصوصيته في التخلق بأخلاق الله ، والتحلى بمعانى أسمائه وصفاته بقدر ما يتصوره في حقه أن يتصف بمحاسنها إلى أن يكون العبد قريبا من الرب عز وجل.... ".[٦٥]

وأكد الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى أن رياضة النفس هذه –من الناحية السيكولوجية- تتم على المراحل الثلاث : الفكرة المجردة ثم الشعور بمضمونها ثم السلوك العملي لتحقيقها. في المرحلة الأولى يقتنع السالك للطريق بفكرة التخلص عن صفاته النفسية الذميمة للوصول إلى الله اقتناعا تاما ، وذلك إما بإيحاء من شيخه أو بإيحاء من ذاته. وفي المرحلة الثانية يبحث السالك في نفسه عن هذه الصفات الذميمة حتى يستشعر تماما وجودها فيه فتتحول بذلك فكرته المجرد إلى شعور حقيقي بها. وفي المرحلة الثالثة يصطنع السالك ضروبا مختلفة من السلوك يحقق بها نقائض هذه الصفات ، فتتلاشى في نظره صفته الأولى ويكون محققا لفكرته المجردة عن ضرورة الخلاص عنها.[٦٦]

ومن أنواع رياضة النفس العزلة ، فالعزلة عنده تعنى الإنقطاع المعنوى لا الحقيقي عن الخلق بحيث يكون السالك مراقبا نفسه على الدوام ، ومحاذرا من أن يشغل ذهنه بالعالم ، أو يتعلق قلبه وجوارحه بالناس. ولا بد للعزلة من أن يصحبها التفكر المتصل واستبطان النفس لتعرف عيوبها مع الإنصراف التام عن التفكير في شؤون الناس والكف عن تناول أخبارهم وغيبتهم . والعزلة على هذا الوجه أنفع شيئ للقلب ، وفي هذا يقول ابن عطاء الله في الحكم "ما نفع القلب شيئ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة".

[٦٥] القصد المجرد : ص ٢٤

[٦٦] الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، المرجع السابق ص ١٨٢

ومن أنواع رياضة النفس الأخرى هي الذكر فالذكر عند ابن عطاء الله السكندري له وظيفتين أحدها ما تتعلق بالتربية الخلقية حيث أنه يجلو مرآة القلب ويطهرها عما يكون فيه شوائب النفس وعيوبها فهو بهذا قوت الأرواح والقلوب كما تعالى " الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ "[٦٧].

ج. الهمة العالية

أكد ابن عطاء الله على المريد أن يكون لهم الهمة القوية ذلك من خلال حكمه " الرجاء ما قارنه العمل ، وإلا فهو أمنية" وأيضا " أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضي عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضي عن نفسه فأي علم لعالم يرضي عن نفسه ؟ وأي جهل لا يرضى عن جهله؟"

من مظاهر علو الهمة: الاجتهاد في طلب العلم؛ والجد والمثابرة في تحصيله وإن من أعظم ما يعين على علو الهمة في طلب العلم مطالعة ما أعده الله عزَّ وجلَّ لطالب العلم والعلماء. علو الهمّة راية الجِدّ، وبَذْرُ النِّعَمِ، وإذا طلب رجلان أمراً ظفر به أعظمهما مروءةً، ومن ترك التماس المعالي بسوء الرجاء لم ينل عظيماً، وقد قيل لبعض الحكماء: من أسوأ الناس حالاً؟ قال: من بعُدت هِمّتُهُ ، واتسعت أمنيّتُهُ، وَقَصُرَتْ آلَتُهُ ، وقَلّتْ مَقْدِرَتُهُ.

د. التوكل على الله

هو تفويض الأمر لله والإلتجاء إليه امتثالا لقوله تعالى "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" وقال الصوفي في حكمه الـ٣٩ "لا ترفعن إلى غيره حاجة ، هو موردها عليك ،

[٦٧] الرعد : ٢٨

فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعا؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا؟".

وللتوكل آثارا إيجابية للمريد ذلك لأن فيه قوة دافعة تملأ القلب باليقين، حيث تجعل المريد لا يريد شيئا إلا من لدن حكيم عليم.

ه. الصحبة بالأخيار

فينبغي للمتعلم أن يختار الشريك الخير ذلك لأنه يساعد المتعلم على التركيز والتشجيع في الطلب. قال ابن عطاء الله في حكمه الـ٤٣ لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، ربما كنت مسيئا فأراك الإحسان منك صحبتك من هو أسوأ حالا منك". وللشريك أهمية كبيرة كما أشار إليها الشاعر قائلا :

عن المرء لا تسئل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدى

فإن كان ذا شر فجانبه سرعة وإن كان ذا خير فقارنه تهتدى[٦٨]

و. إخلاص العمل لله تعالى

فالإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين ، فمتى أفردت ربك بالطاعة ، ونسيت رؤية الخلق بدوام نظرك إلى الخالق ، فقد تحقق لك الإخلاص. فطلب العلم عبادة من العبادات ، وقربة من القرب ، فإنْ خلصت فيه النية قبل وزكا ، ونمت بركته ، وإن قصد به غير وجه الله تعالى حبط وضاع ، وخسرت صفقته . كما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا "مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ".

[٦٨] الزرنوجي ، تعليم المتعلم طرق التعلم ، الخرطوم : الدار السودانية للكتب ، ٢٠٠٤ م ، ص ٢٠

وأكد ابن عطاء الله في حكمه "لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحا ، والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون".

مناهج تطبيق الفكر التربوي الخلقي الصوفي

يحتل المنهج التربوي موقعاً استراتيجياً حساساً في العملية التعليمية عندما ينظر إلى التخطيط التربوي من منظور الجودة والنوعية، لأنّه الترجمة العملية لأهداف التربية وخططها واتجاهاتها في كل مجتمع، فأفضل مدخل وخير وسيلة لإصلاح التعليم وتجديده هو تحسين المناهج وتجديدها وتطويرها بمفهومها الشامل. ولقد تنوعت المناهج في تدريس القيم الفاضلة لدي الناشئين أشهرهم ما بدات على يدي العالم توماس ليكونا في هذه الآونة الأخيرة. فرأى الباحثان أن التربية الأخلاقية الصوفية يمكن أن تطبق في أربعة خطوات هي التعليم Learning والأسوة Modelling والتعود Habituating ثم التعزيز Reinforcing.

التعليم

إن تعليم القيم الفاضلة أصبح فريضة ينبغي الاهتمام بها وتحمل مسؤولياتها الجسيمة، ومقصر كل من يهمل التربية. ففي هذه المرحلة يمكن للمعلم أن يستخدم أساليب التعليم منها ما نسميه بالوعظ أو الإرشاذ . إن الإنسان بطبعه اجتماعي يتفاعل مع محيطه، ويمكن أن يتأثر به سلباً أوإيجاباً، والموعظة الحسنة تشكّل عاملاً خارجياً يأخذ بيد الإنسان ليساعده على غرس القيم، وتتأكد ضرورتها عند غفلة الإنسان. إن الموعظة تؤثر أثرها في المؤمن بشكل خاص، لأنه يستحضر الالتزام الشرعي في أموره، وقد تغيب عنه بعض التفاصيل، أويدفعه هواه بالاتجاه الخاطئ، فيكون دورها دور المنبه للضمير المذكر بالمسؤولية الشرعية والرقابة الإلهية. "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ".

وقد تعددت الأساليب التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم في إلقاء الموعظة وطريقة عرضها منها.

أ- الحوار والاستجواب، وذلك بطرح الأسئلة على أصحابه ليثير انتباههم ويحرك ذكاءهم ويقدح فطنتهم ويسقيهم المواعظ المؤثرة في قالب الإقناع ، ومن ذلك ما رواه مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه :" أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا".

ب- دمج الموعظة بالمداعبة ، وذلك لتحريك الذهن وإذهاب الملل وتشويق النفس ، ومن ذلك ما رواه الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : " إن حاملك على ولد الناقة " فقال الرجل : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟

ج- الموعظة بضرب المثل ، روى النسائي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب..... " .

د- الموعظة بالتمثيل باليد كقوله صلى الله عليه وسلم " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " وشبك بين أصابعه . (متفق عليه)

ه- الموعظة بالرسم والإيضاح ، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فخطَّ بيده في الأرض خطاً فقال : " هذا سبيل الله " وخطَّ خطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال : هذه سبل الشيطان ، ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم تلا هذا الآية : " وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . . . ".

القدوة

هي التي يقتدى ويحتذى به من حيث جعله أسوة ومثالاً ونموذجاً لسلوكيات وتصرفات الآخرين والدليل على فائدتها أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بأن يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " ، وقد طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من المسلمين أن يقتدوا به "صلوا كما رأيتموني أصلي"، والفطرة السليمة ترى أن القدوة الصالحة من خير وسائل التربية وغرس القيم السليمة ، كما أن القدوة السيئة لها تأثير سلبي على المتعلم وعلى الطفل ، فالولد الذي يرى والده يكذب لا يمكن أن يتعلم الصدق ، والولد الذي يرى أمه تغش أباه أو أخاه أو هو نفسه لا يمكن أن يتعلم الأمانة ، والولد الذي يرى أمه مستهترة لا يمكن أن يتعلم الفضيلة.[٦٩]

والقدوة الحسنة هي المثال الواقعي للسلوك الخلقي الأمثل، وهذا المثال الواقعي قد يكون مثالًا حسيًّا مشاهدًا ملموسًا يقتدي به، وقد يكون مثالًا حاضرًا في الذهن بأخباره، وسيره، وصورة مرتسمة في النفس بما أثر عنه من سير، وقصص، وأنباء من أقوال أو أفعال.

التعود

هي ميل نفسي مكتسب بالتكرار والخبرة ، للقيام بذات الأعمال السلوكية ، بحيث يقوم بها بطريقة آلية عفوية لحد بعيد ، ويطمئن إليها الفرد . تكمن أهمية العادة في أنها تعد مصدر سعادة وريادة ، أو مصدر تعاسة وشقاء . فإذا اعتاد الإنسان الفضائل كانت مصدرا لسعادته ، وإذا اعتاد الرذائل والسفاسف كانت مصدر شقاء وضيع.

وأبان الإسلام أن طريق تأصيل الخلق : هو تحري فعل الأمر حتى يصبح سجية وطبعا،

[٦٩] محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية . الجزء الأول ، بيروت – القاهرة : دار الشروق(١٩٨٢) ط ٦ .

وأن سبب تأصل بعض الصفات الذميمة هو أيضا التعود على فعل تلك الصفات حتى تصبح سجية وطبعا وخيما في نفس الإنسان، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب ثم الله صديقا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب ثم الله كذابا" . متفق عليه

انطلاقا مما سبق يظهر لنا أهمية المواظبة والاستمرار في الأعمال الصالحة بغية أن يجعلها سجية ملازمة للمسلم في حياته وطبعا متأصلا فيه.

التعزيز

مما لا شك فيه بأن من مظاهر الفروق الفردية بين الطلاب في مجال التعود بالأخلاق اختلافهم في القدرة على ممارسة القيم ، والحرص على اكتساب الخبرات القيمية. فنجد منهم من يسهل عليه، ومنهم من يصعب عليه، أو من يغلب عليه السرحان الذهني والانصراف عنه. وتعد من الأدوار المهمة التي يقوم بها المعلم تلك التي تتعلق بتفاعله وسعيه نحو مساعدة طلابه في الإقبال على الدرس والتعود بحب وشغف.

يستخدم الثواب والعقاب في حياتنا اليومية على نحو واسع لما ينتج عنهما من آثار في السلوك ويكرس الكائن البشري جزءاً من نشاطاته اليومية محاولاً الحصول على الخبرات الإثابية وتجنب الخبرات العقابية لمعرفته الأكيدة بأن السلوك المرغوب متبوع بالتعزيز أو الاستحسان عادة ، في حين يتلو العقاب السلوك غير المرغوب فيه .

لذلك نرى أن التعزيز في اللغة : هو الدعم والتأييد. وأما عند علماء التربية فهو:"العملية التي تؤدي إلى رفع احتمالية حدوث الإثارة أو الاستجابة في السلوك". وكل

تعريفات التعزيز تدور حول معنى واحد هو الدعم لفعل الخير والعمل الإيجابي.

ولقد بين القرآن الكريم أن الأفعال الحسنة، يُثاب عليها فاعلها أضعافاً كما جاء في قوله عز وجل : "مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا"، ولتشجيع المبادرة إلى ممارسة السلوك الحسن والعمل الصالح، جاء التعزيز عليهما بمجرد هم النفس، كما أفاد قوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة".

وختاما نقول إن التربية في طبيعتها عملية توجيه للسلوك الإنساني، وإحداث تغيرات مرغوب فيها، حيث يحتاج الفرد دوماً إلى تعديل سلوكه نحو الأفضل، وهو يتأثر بما حوله من ظروف ويكتسب أنماطاً سلوكية إيجابية وأخرى سلبية، ومن واجب المربي أن يرسّخ ويعزز أنماط السلوك الإيجابي لدى المتعلم.

الخاتمة

مما سبق بيانه، يمكن استنتاجه كما يلي :

إن ابن عطاء الله السكندري له همة عالية ومشروعات هادفة لإنصاف الأمة من أجل وصولهم إلى الكمالية الإنسانية ما يترتب على ذلك انتشار السلام والسعادة في الدنيا والآخرة

إن التعاليم الصوفية هي الأمثل في ترقية الإنسان إلى أعلى مستواه، بدأ من الجانب النفسي مرورا بالعلاقة الأسرية، انتهاء بالعلاقة الاجتماعية والمواطنة، كما تهتم بالعلاقة بين الإنسان والعلاقة بين الإنسان وربه. []

المراجع

القرآن الكريم

أبادي ، الفيروز ، القاموس المحيط ، القاهرة : مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٥

إبراهيم، زكريا، المشكلة الخلقية، القاهرة : مكتبة مصر١٩٨٠م

ابن خلدون ، شفاء السائل و تهذيب المسائل، بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٩٩٦م

أحمد حسين وزملاؤه، *Model Pendidikan Karakter Bangsa; Sebuah Pendekatan Monolitik di Universitas Negeri Jakarta* ، نموذج التربية الأخلاقية الوطنية : مقاربة أحادية في جامعة حكومية جاكرتا

إسنا، *Diskursus Pendidikan Islam* الكلام عن التربية الإسلامية، جلوبال بوستاكا أوتاما، يوجياكرتا،٢٠٠١،

بسيوني ، إبراهيم، نشأة التصوف الإسلامي ، القاهرة :دار المعارف ١٩٦٩

البغدادي ، أبو فضل شهاب الدين محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ،بيروت : إحياء التراث العربي، ١٤٠٥ ه

التفتازانى ، أبو الوفا الغنيمى ، ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩

توماس ليكونا، *Character Matters* المواد الخلقية، سومون وشوستر، نيو يورك، ٢٠٠٤

الجوزية ، ابن قيم ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣م

الحفنى ، عبد المنعم ، معجم مصطلحات الصوفية، بيروت : دار المسيرة،١٩٨٠م

خليفة ، حاجي، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، التركية :مطبعة المعارف

التركية ١٩٤١م

ديدي سوبريادي، *Membangun Bangsa melalui Pendidikan* بناء الشعب من خلال التربية، ريماجا روسدا كريا، باندونج، ٢٠٠٥

رضا ، محمد رشيد، تفسير المنار ، القاهرة : مكتبة طه كمال خضر ، ١٩٤٧م

الزرنوجي ، تعليم المتعلم طرق التعلم ، الخرطوم : الدار السودانية للكتب، ٢٠٠٤م

سابتونو، *Dimensi-dimensi Pendidikan Karakter; Wawasan, Strategi, dan Langkah Praktis* أبعاد التربية الخلقية : النظرة والاستراتيجية والخطوات التطبيقية، إيرلانجا، جاكرتا، ٢٠١١

السبكي ، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى ، القاهرة : هجر للطباعة والنشر ، ١٤١٣هـ

السكندري، ابن عطاء الله، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد ، القاهرة : مكتبة المدبولي ، ٢٠٠٢ م

السكندري، ابن عطاء الله، لطائف المنن ، القاهرة : مكتبة القاهرة، ٢٠٠٤م

الشاطبي ، الموافقات ، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥م

الطوسي ، أبو نصر السراج ، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، *اللمع*، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية٢٠٠٢م

الطويل، وفيق، أسس الفلسفة، القاهرة : دار النهضة العربية١٩٧٩م.

عجيبة ، ابن ، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، القاهرة : البابي الحلبي ١٩٦١م

العسقلاني ، ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، القاهرة :دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٩م

عفيفي حجازي ، سامي ، دراسات في التصوف والأخلاق ،القاهرة: جامعة الأزهر الشريف ٢٠٠٤م

الغزلي ، أبو حامد، إحياء علوم الدين، لبنان :دار الكتب لعلمية

فرحون ، ابن ، الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، القاهرة : دار التراث ، ١٤١٧هـ

القاشاني ، كمال الدين عبد الرزاق ، اصطلاحات الصوفية، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ م

القشيري ، عبد الكريم بن هوازن ، الرسالة القشيرية ، بيروت، ١٩٩٠م

الكلابذي ، التعرف بمذهب أهل التصوف ، القاهرة: الأزهر ١٩٨٠

ليكسي ج موليونج، *Metodologi Penelitian Kualitatif* منهج البحث النوعي، ريماجا روسدا كريا، باندونج، الطبعة السادسة عشرة

مبارك ، زكي ، التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق، القاهرة: مطبعة الرسالة ، ١٩٣٨م

مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، القاهرة : مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٤م

محمد إقبال حسن، *Pokok-pokok Materi Metodologi Penelitian* مصادر منهج البحث، جاليا إندونيسيا، جاكرتا، ٢٠٠٢م

محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر – بيروت

محمود ، عبد الحليم ، قضية التصوف المنقذ من الضلال، القاهرة ، دار المعارف

مخلص سماني وزملاؤه، *Konsep dan Model Pendidikan Karakter* التربية الأخلاقية : فكرة ونموذج، ريماجا روسدا كريا، باندونج، ٢٠١١

ميستيكا زيد، *Metode Penelitian Kepustakaan* منهج البحث المكتبي، مؤسسة أوبور إندونيسيا، ٢٠٠٨م

النابلوسي ، عبد الغنى ، الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية، القاهرة: دار الحديقة ، ١٢٧٦هـ

نورلا إسنا عون الله، *Panduan Menerapkan Pendidikan Karakter di Sekolah* دليل تطبيق التربية الخلقية في المدرسة، لاكسانا، يوجياكرتا، ٢٠١١،

وزارة التربية القومية، *Pedoman Pelaksanaan Pendidikan Karakter (Berdasarkan Pengalaman di Satuan Pendidikan Rintisan)* دليل تطبيق التربية الخلقية بناء على التجربة في وحدة التربية الريادية، مجمع البحث والتنمية المركزي للمناهج الدراسية والمكتبية.

كياهي أحمد دحلان وتربية الأمة الإسلامية (جهاد من أجل نشر الإسلام رحمة للعالمين)

KH. Ahmad Dahlan and Islamic Education: An Effort to Spread Islam Raḥmat li'l-'Ālamīn

Ahmad Nurul Huda & Abdullah Affandi

PGRI University, Semarang & High School of Badrus Sholeh, Kediri - Indonesia
e-mail: sheil_mata@yahoo.com, fans_virgo@yahoo.com

ملخص البحث

يهدف هذا البحث كشف النقاب عما سار إليه أحمد دحلان من الجهود التربوية والجهاد المرير من أجل ترقية نوعية الأمة الإسلامية، وتطبيق التعاليم الإسلامية على وجهها النير الظاهر. ومما لا يختلف فيه اثنان أن هناك عشرات من المدارس والجامعات، والمستشفيات التي تم إنشاؤها تحت رعاية ومسئولية وجهود الجمعية التي أسسها أحمد دحلان. وهذه الظاهرة لا بد أن لا تنفصل عن الأهداف والرسالات التي رسمها هو. وباستخدام المنهج الوصفي التحليلي، مع مقاربة المراجع التاريخية والظواهر الواقعية، توجه هذا البحث بسهامه إلى تحليلها وتوصل إلى نتيجة أن دعوة أحمد دحلان دعوة إسلامية وسطية يروج من خلالها رحمة الإسلام. كما يهتم أحمد دحلان بالجوانب التطبيقية أكبر من الجانب النظري. وبدل أن يفسر هو سورة الماعون –على سبيل المثال- بالجولة اللغوية، آثر الجانب التطبيقي الذي أشاره السورة. وعما يتعلق بالجمعية –محمدية- التي أسسها، فإنه كان يقوم على توليها ورئاستها على نظام عصري، حيث يتبنى المنهج الغربي رغم تمسكها بالتعاليم الإسلامية وتوفرها بالروح الدعوية.

الكلمات الرئيسية: التربية؛ الاسلام؛ أحمد دحلان؛ رحمة للعالمين

Abstract

*This study tries to investigate Ahmad Dahlan's educative role and struggle in improving the Muslim quality. As we have known, there are a number of schools and higher institutions under the patronage of Muhammadiyah organization founded by Ahmad Dahlan. This reality could not absolutely be separated from his vision and mission. This research uses a descriptive analytic. It has reached on the hypothesis that Ahmad Dahlan religious propagation (*da'wah*) is more practical and applicative than formalist-textualist for example when he interprets Surah al-Ma'un, the language approach he used is not rigid. On the contrary, he placed himself as motivator and activator for his people to move together to help poor people and orphan and to demulcent another's burdens as has been taught by such verses.*

Keywords: Islamic education; Islam; Ahmad Dahlan; peace in world

مقدمة

الإسلام دين عالمي يعلم الناس كل نواحي الحياة، دنيويا وأخراويا. ومن تعاليمه وجوب تنفيذ التربية والتعليم على المسلمين من أجل الحصول على السعادة في الدنيا والآخرة.

التربية ضرورة بشرية لا بد منها من أجل بقاء الإنسان وبناء الأجيال وتطورها، وتأكيد القيم الأصلية وصلاح الأخلاق والنفوس, وللتربية منهجها الكامل وطريقتها المتميزة في بناء الإنسان الصالح روحيًا وخلقيًا ونفسيًا وعقليًا وجسميًا واجتماعيًا ليكون إنسانًا متوازنًا سويًا ومواطنًا قادرًا على النهوض بمجتمعه على أساس علمي وعمل مستقيم.

وقد برز اهتمام الأمم والشعوب في أنحاء العالم بجميع عناصر ومكونات العملية التربوية لحاجتها الملحة إلى التربية السليمة, وازداد هذا الاهتمام مع تطور العالم وتقدمه في شتى المجالات الصناعية والزراعية والتجارية وفي ميادين الاختراعات والابتكارات التقنية, وفي عالمنا المعاصر اطردت الحاجة إلى الدين كضرورة تربوية لتحقيق التوازن بين المادة والروح ولتنمية الجانب الروحي والخلقي، حيث لن تستقيم الحياة إلا إذا التزم الإنسان بالدين وطبق شريعة الله.

لقد وضع الإسلام للتربية منهجًا متكاملًا ومتوازنًا، كما منح الإنسان نظام حياة كاملًا مفصلًا في القرآن والسنة إذا اتبعه الإنسان بقلب سليم ونية صادقة استحق أن يكون خليفة الله في الأرض, ولكي يتبع الإنسان هذا النظام ويطبقه تطبيقًا صحيحًا فإنه يحتاج إلى تربية ينشأ عليها منذ طفولته، في البيت وفي المجتمع الذي يعيش فيه، وأن تكون هذه التربية شاملة لروحه وعقله وجميع حواسه.

أن التربية هي رعاية الإنسان في جوانبه الجسمية والعقلية والعلمية والوجدانية والاجتماعية وتوجيهها نحو الصلاح والخير والوصول بها إلى الكمال.

وغاية التربية الإسلامية تحقيق العبودية الخالصة لله على مستوى الفرد والجماعة والإنسانية، وقيام الإنسان بمهامه المختلفة لعمارة الكون وفق منهج الله، ومفهوم العبادة في الإسلام مفهوم شامل جامع لا يقتصر على أداء الفرائض التعبدية فحسب, بل يشمل أيضًا نشاط الإنسان كله من فكر واعتقاد وتصور وعمل ما دام الإنسان يبتغي وجه الله بهذا النشاط, ويلتزم فيه شريعته ومنهجه.

إن مادة التربية الإسلامية هي صمام الأمن للأمة الإسلامية في حاضرها ومستقبلها، وقد عني بها القرآن الكريم والسنة الشريفة، وبالتالى فهي جزء لا يتجزأ من عموم الشريعة السمحة. وللتربية الإسلامية دور مهم يعود على الأسرة والمجتمع بالاستقرار والسعادة. لذا يجب أن تقوم سياسة التربية الإسلامية على أسس عقائدية مستعدة من الشريعة الإسلامية مع الأخذ في الاعتبار احترام الإسلام للعقل والفكر ووقوفه مع العلم النافع وتوجيه الإنسان لتسخير الكون لمصلحة البشر وتقدمه وفق منهج الله.

إن التعليم من أفضل الأعمال التي يؤيدها الإنسان، ولا يوجد دين حث على طلب العلم ونشره بين الناس وجعله أمرًا واجبًا على كل مسلم ومسلمة كالدين الإسلامي. وقد جعل الإسلام للمعلم مكانة سامية ودعا إلى احترامه وتقديره، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يفعل، وأن العالم ليستغفر له من السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف الماء". رواه أبو داود والترمذي.

ويعد المعلم إحدى الركائز الأساسية في عملية التربية والتعليم، وذلك لأنه العامل الأساسي في إنجاح وتحقيق الأهداف التربوية والتعليمية. وانطلاقًا من ذلك الدور الذي يقع على عاتق المعلم فقد تزايد الاهتمام بإعداده وتطوير مستوى أدائه والارتقاء به أكاديميًا ومهنيًا. وأصبحت مهمة إعداده وتأهيبه مطلبًا أساسيًا وتعليميًا في شتى أنحاء

العالم. إن الهدف الأساسي من عملية إعداد المعلم هو تمكينه من معرفة حقيقة العملية التربوية بمدخلاتها الأساسية والضرورية ثم تحويل تلك المعرفة إلى مهارات فنية وتعليمية يستخدمها المعلم في مواقف التعليم التي تواجهه أثناء تأديته لمهنة التعليم[١].

وعبر محمد عطية الأبراشي أن التربية هو السعي في تمكين فرد حياة ذات علم ومعارف وأخلاق كريمة وأجسام سليمة وعقول ذكية. وتضمن هذا التعريف تكوين الدارسين في الجانب الاجتماعي، والمعنوي، والجسمي والعقلي. وهدف التربية تكوين الإنسان المبدع بخلاف التعليم الذي يقتصر على نقل المعارف والأفكار.

التربية عملية هادفة وفن مرن متطور تحكمه قواعد وقوانين، وهي ترمي إلى تكوين العادات الحسنة بالاستفادة من الغرائز والميول في تحقيق هذا الهدف عن طريق الإرشاد والتدريب.

وتعنى التربية بالمحافظة على فطرة الناشئ ورعايتها، وتنمية مواهبه واستعداداته، ثم توجيه هذه الفطرة وهذه المواهب جميعًا إلى ما يحقق صلاحها وكمالها اللائق بها.

وتتميز التربية الحديثة بأنها تربية عملية توفر للتلميذ نصيبًا كبيرًا من الحرية وتدفعه إلى الاعتماد على نفسه والمثابرة، فضلًا عن أنها تدعم ملكة تفكيره وتساعده في تحقيق تقدم مستمر ونشدان الأفضل، وبالإضافة إلى ذلك فإنها تولي اهتمامًا كبيرًا بالحياة الاجتماعية للأمة وتعمل على تحسين كل جوانب المجتمع[٢].

وللتربية أُسس جوهرية يبرز منها الأساس الفكري والأساس الاجتماعي والأساس

---

[١] عاطف السيد، التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، ص ٧-٩

[٢] محمد عطية الإبراشي، روح التربية والتعليم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٠م ص ٢٤

النفسي .ولكل اتجاه تربوي أساس فكري خاص حيث إن الأفكار والعقائد تقود العملية التربوية. والتربية السليمة تنهض على عقائد صحيحة، ومن ثم يمكننا القول: إن التربية لها أساس ديني. وهناك أفكار عن الكون والوجود والحياة والإنسان تشكل أيضًا أساسًا فلسفيًا للتربية.

كذلك فإن للتربية أساسها الاجتماعي الذي يتناول الإنسان كفرد في المجتمع. ولما كانت التربية نتاج الحياة الاجتماعية, فقد نشأت علاقة وثيقة بين التربية والمجتمع. ويظهر الأساس الاجتماعي للتربية من خلال تطور ثقافة الأمة[٣].

مجالات التربية الإسلامية

إن مجالات التربية متعددة وشاملة، تبدأ منذ ولادة الإنسان إلى أن يدرج الولد في مرحلتي التمييز والمراهقة إلى أن يصبح سويا مكتملا. وتشمل المجالات التالية : التربية الإيمانية، والتربية الخلقية، والتربية الجسمية، والتربية العقلية، والتربية النفسية، والتربية الاجتماعية، والتربية الجنسية[٤]. وفيما يلي بيان كل بإيجاز :

أولا:- التربية الإيمانية. المقصود بالتربية الإيمانية ربط الولد منذ صغره بأصول الدين، وتعويده منذ بداية فهمه أركان الإسلام، وتعليمه من حين تمييزه مبادئ الشريعة الغراء وتتلخص مسئولية المربين في هذا المجال بما يلـــي :

- أن يرشدهم إلى الإيمان بالله وقدرته المعجزة وإبداعه الرائع عن طريق التأمل والتفكير

[٣] عاطف السيد، التربية الإسلامية : أصولها ومنهجها ومعلمها، ص ١٣

[٤] تربية الأبناء في الإسلام، عبدالله علوان، دار السلام للطباعة، حلب، ١٩٨١، الطبعة الثالثة، ص١٤٠ وما بعدها

في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار قال تعالى: " إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس..... لآيات لقوم يعقلون.[٥]

- أن يغرسوا في نفوسهم روح الخشونة والتقوى والعبودية لله رب العالمين، وذلك بتعويدهم وترويضهم منذ الصغر حب العبادة لله قال تعالى :" قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون[٦].
- أن يربوا فيهم روح المراقبة لله تعالى سبحانه، في كل تصرفاتهم وأحوالهم وتعريفهم بأن معنى الإحسان " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " فالإنسان يجب أن يجعل من نفسه رقيبا عليها ومحاسبا لها ،قال تعالى: " إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون"[٧]. وقال تعالى : " وإما ينزغنك الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم* إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون"[٨].

ثانيا:- التربية الخلقية. يقصد بالتربية الخلقية مجموعة المبادئ الخلقية والفضائل السلوكية التي يجب أن يتعلمها الإنسان منذ صغره إلى أن يخوض خضم الحياة، ولقد وصف الله سبحانه وتعالى رسوله الحبيب في القرآن الكريم بقوله " وإنك لعلى خلق عظيم.[٩]، وأمرنا باتخاذ الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة في القول والعمل قال

---

[٥] سورة البقرة، الآية (١٦٤)

[٦] سورة المؤمنون الآيات (١- ٢)

[٧] سورة النحل الآية (١٢٨)

[٨] سورة الأعراف الآيات (٢٠٠-٢٠١)

[٩] سورة القلم الآية (٤)

تعالى: " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة"[١٠]. ولا شك أن الرسول عليه السلام قد وضع لأولياء الأمور والآباء والمربين، المنهج العلمي والعملي والمبادئ الصحيحة في تربية الولد على الخلق القويم والشخصية الإسلامية المميزة وأهم بنود هذا المنهج :

١. التحذير من التشبيه والتقليد الأعمى : قال عليه الصلاة والسلام : " ليس منا من تشبه بغيرنا ، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى"[١١]
٢. النهي عن الاستغراق في التنعيم قال عليه السلام: " إياكم والتنعم وزي أهل الشرك"[١٢].
٣. النهي عن الاستماع إلى الموسيقى والغناء الخليع. عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع إلى صوت الروحانيين في الجنة"[١٣].
٤. النهي عن التخنث والتشبه بالنساء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لعن الله المتخنثين من الرجال والمترجلات من النساء)[١٤].
٥. النهي عن السفور والتبرج والنظر إلى المحرمات قال تعالى : " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم.[١٥] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها

---

[١٠] سورة الأحزاب الآية (٢١)

[١١] رواه الترمذي

[١٢] متفق عليه

[١٣] رواه الترمذي

[١٤] رواه البخاري وأبو داود والترمذي

[١٥] سورة النور الآية رقم ٣٠

الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها من مسيرة خمسمائة عام[١٦].

ثالثا: التربية الجسمية : المقصود بالتربية الجسمية تنشئة الأبناء على خير ما ينشئون عليه من قوة الجسم، وسلامة البدن. ومظاهر الصحة والحيوية والنشاط. ومن مبادئ التربية في هذا المجال ما يلي :

١. وجوب النفقة على الأهل والولد في الحديث عن الرسول عليه السلام قال: " كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت[١٧].
٢. ومن ذلك تهيئة الأب لأهله ولعياله الغذاء والكساء والسكن الملائم حتى لا تتعرض أجسامهم للأسقام
٣. إتباع القواعد الصحية في المأكل والمشرب. قال عليه السلام: "ما ملأ آدمي وعاء شر من بطنه[١٨].
٤. معالجة المرض بالتداوي. قال عليه السلام: " إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ[١٩].
٥. تطبيق مبدأ : " لا ضرر ولا ضرار. فهذا الحديث قاعدة شرعية هامة توجب على الإنسان المحافظة على صحته وجسمه، ووقايته من الأمراض السارية والمعدية وإتباع الإرشادات الصحية في ذلك.
٦. تعويد الولد على ممارسة الرياضة وألعاب الفروسية تحقيقا لقوله تعالى: "وأعدوا لهم ما

[١٦] رواه مسلم في صحيحه، باب النساء، ١٦٨/٦

[١٧] رواه أبو داود في سننه، باب في صلة الرحم، ٥٩/٢، وابن حبان في صحيحه، باب النفقة، ٥١/١٠

[١٨] رواه الترمذي في سننه، ٢٠٠/٩

[١٩] رواه أبو داود في سننه، باب الأدوية، ٣٧٠/١١

استطعتم من عقبة بن عامر يقول سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو على المنبر يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى[٢٠].

رابعا:- مسئولية التربية العقلية، المقصود بالتربية العقلية تكوين فكر الولد بما هو نافع من العلوم الشرعية والثقافة العلمية والعصرية، والتوعية الفكرية والحضارية، لذلك فهي توعية وتثقيف وتعليم ويتجلى أثر التوعية العقلية في الأمور التالية :

١. الواجب التعليمي، وقد حث الإسلام في مواطن كثيرة على العلم والتعليم فقال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات)، وقال عليه السلام : (من خرج في سبيل العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع)

٢. مسئولية التوعية الفكرية، ومن أهم مظاهر التوعية الفكرية ما يلي:

- خلود الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان
- الكشف عن الحضارة الإسلامية التي كانت الدنيا بأسرها ترتشف من معينها وستظل مشعلا للحضارة الإنسانية، لأن مصدرها الأساسي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة،

خامسا:- التربية النفسية، ويقصد بها تربية الولد منذ أن يعقل ، على الجرأة والصراحة والشجاعة والشعور بالكمال وحب الآخرين ، والتحلي بكل الفضائل النفسية والخلقية، ومن أهم الظواهر التي يجب على المربين أن يحرروا أولادهم منها وهي :ظاهرة الخجل، ظاهرة الخوف، ظاهرة الشعور بالنقص، ظاهرة الحسد، ظاهرة الغضب.

[٢٠] رواه مسلم في صحيحه، باب فضل الرمي، ٥٢/٦

سادسا :- التربية الاجتماعية: يقصد بالتربية الاجتماعية تأديب الولد منذ نعومة أظفاره على التزام آداب اجتماعية فاضلة من العقيدة الإسلامية الخالدة ، والشعور الإيماني العميق، ومن أهم الأسس التي يجب إتباعها : ١) غر س الأصول النفسية النبيلة مثل : التقوى والأخوة والرحمة والإيثار والعفو، ٢) مراعاة حقوق الآخرين مثل حقوق الوالدين وحقوق الأرحام، وحق المعلم، وحق الرفيق وغيرهم، ٣) احترام الآداب الاجتماعية مثل:آداب الطعام، وآداب السلام، وآداب المجلس، وآداب الحديث وغيرها، ٤. المراقبة والنقد الاجتماعي مثل : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد مدح الله تعالى هذه الأمة الإسلامية بإنهم خير أمة لقيامهم بهذه الوظيفة الشريفة، قال تعالى : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.

التربية في إندونيسيا

تتميز التربية في العهد الاستعمار الياباني بعد انهيار نظام الاستعمار الهولندي بالمناهج الدراسية التي قامت بدعم حكومة الاستعمار الياباني والدفاع عنها. وتتحقق في استغلال الدارسين لمواجهة الحلفاء الغرب بأجرة زهيدة.

وفي أوائل القرن العشرين، لا زالت التربية الإسلامية في إندونيسيا متسمة بالنظام الثنائي حيث فصلت التربية الدينية (الإسلامية) عن التربية العامة. فكما أن هناك مدرسة دينية تدرس فيها العلوم الدينية دون العلوم العامة، فإن هناك مدرسة عامة تقتصر على تدريس العلوم العامة. والتربية وقتئذ هي الأخرى ليست لها رؤية ولا رسالة ولا أهداف واضحة. ويترتب على ذلك تأخر المسلمين بسبب نظام التربية التقليدي.

ومن بين المثقفين ورواد التربية الإسلامية الذين حاولوا إعادة بناء نموذج التربية هو كياهي الحاج أحمد دحلان، مؤسس جمعية "محمدية" ، رائد التجديد في إندونيسيا. وهو

يسعى في إدخال العلوم الدينية ضمن مناهج التربية العامة. ومن خلال التربية يرغب دحلان أن يكون للأمة والشعب الإندونيسي الروح القومية وحب الوطن. وهو من أبرز الرائدين الذين نجحوا في تنمية وتوسيع رؤية التربية الحديثة في أنحاء البلاد ولا يزال إنتاجه مستمرا حتى الآن. وفيما يلي بيان لما يتعلق بأحمد دحلان من سيرته الذاتية وجهوده من أجل ترقية كفاءة الأمة الإسلامية.

سيرة موجزة لكياهي الحاج أحمد دحلان

كياهي الحاج أحمد دحلان من مواليد "كاومان يوجياكرتا"، عام ١٨٦٩ م، وسماه والده – كياهي الحاج أبو بكر بن سليمان- محمد درويش. كان والده خطيبا في جامع يوجياكرتا. أما أمه فاسمها سيتي آمنة بنت الحاج إبراهيم القاضي من قصر سلطنة يوجياكرتا، نشأ أحمد دحلان في أسرة شهيرة ذات نفوذ في سلطنة يوجياكرتا. وتتجذر هذه الأسرة إلى مولانا مالك إبراهيم، الداعية الإسلامي الشهير في القرن الخامس عشر الميلادي، وهي أحمد دحلان بن كياهي الحاج أبو بكر بن كياهي الحاج محمد سليمان بن كياهي مرتضى بن كياهي إلياس بن ديمانج جورونج كافيندو بن ديمانج جورونج جورو سافيسان بن مولانا سليمان كي أجينج جريبيج (جاتي نوم) بن مولانا محمد فضل الله (برابين) بن مولانا عين اليقين بن مولانا إسحاق بن مولانا مالك إبراهيم[٢١].

وله سبعة إخوة : كتيب هاروم، محسن، نور، صالح، أحمد، عبد الرحيم، محمد باكين، بشير. توفي أحمد دحلان في ٢٣ فبراير ١٩٢٣م في عمر ناهز ٥٥ سنة.

تربى في التربية التقليدية ب"كاومان، يوجياكرتا" حيث والده يتولى تدريس العلوم

[٢١] يونس سلام، ١٩٦٨، ٦

الإسلامية. ومن أجل زيادة المعارف والعلوم، أرسل والده إلى بيسانترين في يوجياكرتا وغيره من البيسانترينات في جاوى، ومن أساتذته كياهي الحاج محسن، ومنه تعلم علم النحو، وتعلم علم القراءات على الشيخ أمين، والفقه على الشيخ محمد صالح، وعلم الحديث على يد الشيخ محفوظ والشيخ خياط سطاخ، كما تعلم علم الفلك على يد الشيخ الحاج رادين دحلان. وبعد أن تمت دراسته في مسقط رأسه وفي المدن المجاورة، وعند بلوغ عمره ٢٢ سنة، سافر أحمد دحلان إلى مكة للمرة الأولى سنة ١٨٩٠م. ولمدة سنة كاملة تعلم العلوم الإسلامية على يد السيد بكري شاتا في الفقه الشافعي. وهو الذي غير اسمه –محمد درويش- إلى أحمد دحلان.

وبعد العودة من مكة، تزوج أحمد دحلان بـ "سيتي وليدة"، بنت عمه، الحاج فاضل والتي اشتهرت فيما بعد باسم نياهي أحمد دحلان، أحد أبطال إندونيسيا ومؤسسة جمعية عائشية. ورزقا من هذا الزواج ستة أولاد : جوهانة، وسراج دحلان، وسيتي بشرى، وعرفان دحلان، وسيتي زهرة. كما تزوج بـ "نياهي عبد الله، أرملة كياهي عبد الله، ونياهي روم، أخت كياهي منور كرابياك. كما تزوج بـ "نياهي عائشة تشي أنجور، ونياهي ياسين باكو آلامان، يوجياكرتا[٢٢].

وفي سنة ١٩٠٣م وللمرة الثانية، سافر دحلان إلى مكة. وفي مدة أكثر مما قبل، تعلم كثيرا من العلوم على أيدي العلماء الكبار، كما التقى في مجلس البحث والمناظرة مع الشيخ أحمد خطيب الميناناكابوى، والشيخ نووي البانتاني، والشيخ عبد الله الجاوي، والشيخ فقيه كومامبانج الجاوي. ومن المتأكد أن أحمد دحلان على اتصال بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا التجديدية خلال إقامته في مكة المكرمة من خلال مؤلفات

[٢٢] نفس المرجع، ص ٨

هؤلاء مثل مجلة المنار والعروة الوثقى وتفسير جزء عم. كما قرآ إظهار الحق لرحمت الله الهندي وكنز العلوم ودائرة المعارف لفريد وجدي والتوسل والوسيلة لابن تيمية.

حسب قراءته الكتب السابقة واتصاله بالأفكار التجديدية، يتكون في فكر أحمد دحلان الاهتمام بأمر الأمة ودينهم ومدى التزامهم بدينهم الخالص دون أن يشوبه أي انحرافات[٢٣]. كياهي أحمد دحلان له دور فعال في نظام حكومة سلطنة يوجياكرتا، حيث يتولى منصب المعلم الديني.

تعاليم كياهي الحاج أحمد دحلان

١. تطبيقا لما قيل في إحياء علوم الدين للغزالي : الناس كلهم هلكى إلا العالمون والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم[٢٤].

٢. كثير من الناس لهم كبر واستعلاء في السلوك. يأخذون القرار بأنفسهم. ويستغرب كياهي الحاج أحمد دحلان ما يحدث بين رجال الدين وغيرهم من المسئولين حيث يأخذون القرارات بأنفسهم دون أخذ الآراء من الآخر ولا يعقدون الاجتماع أو المشورة أو المناظرة يبحثون فيها ما هو الأحسن وما هو الحق. وفي حين من الأحيان يأخذ هؤلاء آراء الآخرين ولكن يقتصر ذلك على من حوله من تلامذتهم أو زوجاتهم. وهذا لخير دليل على أن أحمد دحلان له رأي مفتوح وعقل مكشوف أمام غيره، يحث على المشورة

---

[٢٣] محمد نصر الدين أنصاري، *Matahari Pembaharuan : Rekam Jejak K.H Ahmad Dahlan* شمس التجديد، السيرة الذاتية لكياهي الحاج أحمد دحلان، ج.ب. فوبليشر، يوجياكرتا، ٢٠١٠م. ص ٨٣

[٢٤] الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤١٤/٣

والمناظرة من أجل حل المشاكل والعثور على آراء جديدة مستنيرة لمستقبل الإسلام الزاهر. وبعبارة أخرى أن أحمد دحلان ليس رجلا مغلقا في الرأي وليس مرهقا في قبول الآخر.

٣. إن الناس إذا فعلوا فعلا ما مرة بعد مرة أصبح عادة لهم. وإذا تعودوا على فعله، فهم يرغبون فيه ويولعون به، ويصعب عليهم إخلاعه. بل تصير هذه العادة عقيدة لهؤلاء، يعتقدون أنها الحق دون تفكير ولا روية. ومفاد هذا التعليم من أحمد دحلان أننا لا نعتبر الحق حقا إلا وأن يكون مبنيا على دليل قطعي، كما أننا لا ينبغي أن نتعود على فعل ما إلا إذا عرفنا أنه على حق. وفي هذا إشارة إلى أن أحمد دحلان رجل يجمع العلم والعمل على أحسن تنسيق، ويدمجهما على أجمل تطبيق. كما فيه تأييد للنقطة الثانية السالف الذكر من أن أحمد دحلان ليس رجلا مغلقا يعمى أمام تقليد دون تفكير.

٤. الناس لا بد وأن يجتمعوا على رباط واحد وهو رباط الحق. كما يجب عليهم أن يستخدموا عقولهم لتفكير حقيقة الحياة وما اعتمدوا عليه من العقائد والعبادات. وهذا هو الآخر من تعاليم أحمد دحلان الذي يهتم اهتماما كبيرا بأمور الأمة ومستقبلتها ما يدلنا على أنه ذو فكر منفتح أمام الأمة وقضيتهم.

٥. وبعد أن سمع الناس الفتاوى المتنوعة وقرؤا كتبا عديدة، وناقشوا وتفكروا ونظروا، وقارنوا بين هذا وهذا، وبين هؤلاء وهؤلاء، يتبين بين أيديهم القرار الثابت والعلم الذي ينبني على الحق. والناس بعقولهم يمكنهم أن يعرفوا ويقرروا أن فعلا ما على حق أم غيره. ولكن الواقع، أن كثيرا منهم لم يجرؤا على التمسك بالموقف الحق مخافة أن يعتزلوا عما يحبونه من المال والأقران. قد يشعر هذا التعليم أن أحمد دحلان متطرف وأناني في الرأي ولم يقبل الآخر. ولكن بالنظر العميق والموقف المنصف يتبين أنه على عكس ذلك، بل

يحث على قبول الآخر والانفتاح أمام الآراء. ثم إن معنى الآخر هنا لا يقتصر على من حولنا من الأقرباء والزملاء حيث إن مفارقتهم تعتبر تطرفا وانغلاقا في الفكر.

٦. كثير من الزعماء لم يكونوا على استعداد في تضحية أموالهم وأنفسهم من أجل مساعدة الأمة والدفاع عن الحق. بل هم للأسف يستغلون الأمة لمصالحهم الشخصية.

٧. ينقسم العلم إلى نظري وعملي (تطبيقي). وتعاليم الإسلام لا يمكن أن تصبح منهج الحياة للمسلمين إلا إذا تم تطبيقها وتنفيذها. فالنظريات رغم حسنها فلن تبلغ إلى الأهداف والأغراض إلا بعد تطبيقها. فلذلك، فإن أحمد دحلان لم يفسر الآيات القرآنية تفسيرا مطنبا مملا لا طائل تحته، ولكن يؤثر تطبيقها في العالم الواقع.

إن الفكرة الأساسية لأحمد دحلان تكمن في محاذاة حقيقة تفسير القرآن، العقل والمكتشفات العلمية والتجربة العالمية الإنسانية. إن درس الفلسفة بالنسبة له يعتبر مفتاحا لتنمية قدرات العقل، بالإضافة إلى دراسة تجارب الشعوب المختلفة وأهل الديانات. من هنا تكتسب معرفة كيفية الحصول على تطبيق التعاليم الإسلامية، يعنى إنقاذ حياة الناس في الدنيا على أساس الحب والرحمة.

وتحقق هذه الفكرة عند تفسيره قوله تعالى في سورة آل عمران : ١٠٤، وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ حيث يشرح معنى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية بأنه يتجسد في الأساس العقائدي للمنظمة الحديثة كآداة لحل مشاكل الحياة الإنسانية. وهذا التفسير لا يوجد في كتب التقسير للعلماء القدامى، حيث اقتصروا على التحليل اللغوي للآية وما لابسها من سبب النزول التفسير المأثور. وعلى سبيل المثال ما ورد في التفسير الطبري ما نصه : القول في تأويل قوله : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه:"ولتكن منكم" أيها المؤمنون أمة"، يقول: جماعة "يدعون" الناس"إلى الخير"، يعني إلى الإسلام وشرائعه. التي شرعها الله لعباده، "ويأمرون بالمعروف"، يقول: يأمرون الناس باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الذي جاء به من عند الله "وينهون عن المنكر"، : يعني وينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد وبما جاء به من عند الله، بجهادهم بالأيدي والجوارح، حتى ينقادوا لكم بالطاعة. وقوله:"وأولئك هم المفلحون"، يعني: المنجحون عند الله الباقون في جناته ونعيمه.

بل والزمخشري المعتزلي الذي يمكننا أن نعتبره رواجا لتياره العقائدي، فإنه فسرها تفسيرا لا يتجاوز ما سار عليه سلفه من المفسرين. وهذا ما نصه : { وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ } «من» للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات ، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر ، وقد يغلظ في موضع اللين ، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً ، أو على مَن الإنكار عليه عبث ، كالإنكار على أصحاب المآصر والجلادين وأضرابهم . وقيل «من» للتبيين ، بمعنى : وكونوا أمّة تأمرون ، كقوله تعالى : { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ } [آل عمران : ١١٠] . { وأولئك هُمُ المفلحون } هم الأخصاء بالفلاح دون غيرهم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل وهو على المنبر : (١٩٧) " من خير الناس؟ قال : آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر . وأتقاهم لله وأوصلهم " وعنه عليه الصلاة والسلام : (١٩٨) " من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه.

نعم، قد يكون ما فهمه أحمد دحلان من الآية غير تفسير بمعناه الاصطلاحي الذي وضعه علماء التفسير بأنه علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[٢٥]. ولكنه لا يؤخذ على ما فعله لأنه الداعية الإسلامي قبل أن يكون مفسرا، وأنه رجل تطبيقي إلى حد أكبر من أن يكون نظريا. فالرسالة القرآنية بالنسبة له يجب ألا تتوقف عند تفسير أو تأويل دون الالتفات إلى تطبيقه.

أحمد دحلان وروح سورة الماعون

إن أحمد دحلان بتشجيعه المثير يتقدم بتفسير سورة الماعون مكررا عدة مرات، حتى يتساءل الناس لماذا لم يشرح الشيخ مادة أخرى أو سورة أخرى؟. فأجاب قائلا : إن محاضرة تفسير الماعون لم تنته ولم تزل مستمرة حتى يتمكن كل منا من تطبيق مدلوها وتنفيذ محتوياتها وإشاراتها. وفي اليوم التالي يجمع أحمد دحلان الناس مرة أخرى ومعهم الملابس اللائقة والمواد الغذائية الأساسية من الأرز والخضروات وما إلى ذلك، ثم يوزعونها إلى الفقراء والمساكين وذوى الاحتياجات المقيمين في حي "كاومان"، يوجياكرتا. ومن أجل تعزيز الرعاية الاجتماعية، لا يتقيد الشيخ بالنظريات المثالية المخضة، ولكنه على استعداد للتضحية المعنوية والمادية من أجل ممارسة الشعور الحساسية الاجتماعية وآمال المجتمع الإسلامي وتحقق المساواة في المجتمع الذي يهتم بالضعفاء.

وفي يوم من الأيام، ولم يزل هناك علاقة بالروح التضامنية الاجتماعية من سورة الماعون، ينادي الشيخ الناس بضرب "كنتونجان[٢٦]". وبعد أن اجتمعوا قال لهم الشيخ، "إني

[٢٥] عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان، ٣/٢

[٢٦] عبارة عن آداة لنداء الناس، وهو مصنوع من الخشب فيه بؤرة مستطيلة ويستعمل بضربه بعصا صغير

أريد أن أبيع آثاث منزلي، وممتلكاتي الخاصة، بطريقة المزاد العلني. وما نتج عن ذلك من النقود فسوف أستعملها لتمويل المصروفات المدرسية ومواساة الفقراء والمساكين واليتامى". فلما أن تم بيعها قال الشيخ : "خذوا هذه البضائع، فهي ملك لكم الآن". ولكنهم أبوا وقالوا أنفقنا بعض أموالنا هذه لله تعالى.

هذا هو نموذج التربية الأخلاقية الاجتماعية التطبيقية حيث يبرز فيها الاهتمام الكبير والعناية العظيمة بمعاناة ذوى الاحتياجات. وهذا أعلى وأفضل بكثير من التعاطف اللفظي أو التسامح بمعنى ترك أخذ المجتمع على ما ساروا عليه من الأفكار الخاطئة والأفعال الضارة.

يتبين مما سبق أن أحمد دحلان ينظر نظرة دقيقة إلى واقع مجتمعه فينتج من خلال فهم السورة نقاط مهمة وهي : أولا - إن الذين لا يبالون الضعفاء يعتبرون من المكذبين بالدين (الإسلام). ثانيا - إن الصلاة التي هي من العبادات المخضة لها البعد الاجتماعي الذي لا شك في وجوده. وبالأحرى أن يقال إنه لا فائدة لصلاة يعدم فيها العبادات الاجتماعية. ثالثا –إن العمل الصالح لا بد أن لا يشوبه الرياء ولو بقدر قليل. وعلى سبيل المثال العمل لأجل الشهرة والأغراض الدنيوية. رابعا –هناك أناس ينزلقون في الأنانية والانحطاط الأخلاقي الاجتماعي ما يترتب على ذلك عدم مبالاتهم معاناة المستضعفين.

استفادة من روح سورة الماعون، يتسابق تلاميذ أحمد دحلان في العثور على الفقراء والمساكين والمستضعفين من أجل مواساتهم وتخفيف الضغوط الاجتماعية التي تعانيهم. أضف إلى ذلك المبادرة التي قام بها أحد تلاميذه، محمد أبو شجاع الذي اقترح إنشاء المستشفى. وهذا الاقتراح يكسب انتقادات من كثير من العلماء والأمة، لتشابهه بالكفار المستعمرين الذين قد أنشئوا المستشفيات. ولكن دحلان وافق على هذا الاقتراح

وأشار بإنشاء المستشفيات. وذلك لأن الانتقادات لا تنبني على دليل قوي ولا منطق سليم. وعلاوة على ذلك فإن الأمة يحتاجون إلى المستشفيات التي قام بإدارتها المسلمون تفاديا عن الرسالات التبشيرية التي تتسلل في مستشفيات الكفار المستعمرين. فهذا أحمد دحلان مرة أخرى يفتح بأعيننا كيف نطبق التعاليم الإسلامية في سياق واقعي ينفع المسلمين وسائر الناس. فهل جاء الإسلام إلا رحمة للعالمين ؟. فالإسلام مع الفقراء والمساكين، بمعنى أنه على عناية كبيرة بهؤلاء، وفي نفس الوقت الإسلام قام بتقليل المسكنة والمعاناة.

أحمد دحلان وجمعية "محمدية"

ويعنى بـ"الجمعية" طائفة تتألف من أعضاء لغرض خاص وفكرة مشتركة. ومنها الجمعية الخيرية الإسلامية والجمعية التشريعية والجمعية التعاونية والجمعية العلمية والأدبية. ويراد بـ "جمعية محمدية" الجمعية الخيرية الإسلامية التي تتغيا أنشطتها من أجل تطهير تعاليم الإسلام التى يراها أحمد دحلان قد يشوبها الآثار التقليدية المحلية من الخرافات والتخيلات والبدع التي لا تمت إلى الإسلام بأي صلة لا من قريب ولا من بعيد.

إن نشأة الجمعية التي أسسها أحمد دحلان تأتي بعد عودته من زيارة الحرمين الثانية، وبعد اشتغاله بالأنشطة الاجتماعية الدينية، مثل توليه مهمة الخطابة وتربية التلاميذ في سكن خاص بناه لهم بجوار منزله، واشتهر باسم بيسانترين. وفيه قام بتعليمهم العلوم الإسلامية مثل الفلك والتوحيد والتفسير. يأتي إليه تلاميذه لا من منطقة يوجياكرتا فحسب، ولكن من مناطق مختلفة في جاوى الوسطى. وعلى الرغم من ذلك، فإن التعليم على الطراز القديم لا يزال مستمرا. كما أن دحلان عقد التعليم الروتيني أسبوعيا أو شهريا لطائفة خاصة من المجتمع مثل الأساتيذ والموظفين كل ليلة الجمعة.

إن تكوين الأفكار والأنشطة الجديدة لدى أحمد دحلان لا تنفصل عن مساهمته الاجتماعية نتيجة اشتغاله بالتجارة وصفته عالما من العلماء. وهاتان الوظيفتان تؤديان إلى قيامه بالزيارات والسفر إلى المدن المختلفة مثل جاكرتا، وجومبانج، وبانيو وانجي، وباسوروان، وسورابايا، وجريسيك، ورمبانج، وسيمارانج، وقديري، وبيكالونجان، وبوروووكرتو، وسوراكرتا، حيث يلتقي فيها العلماء والزعماء والمسئولين سواء من التجار وغيرهم، ويتكلمون عن المسائل الدينية وغيرها من المسائل والمشاكل التي يواجهها المجتمع وعلى وجه الخصوص الجمود والتأخر اللذين يعانى منهما المسلمون نتيجة اضطهاد المستعمرين.

وفي سياق الحركة الاجتماعية، والدينية، والثقافية والوطنية، يمكن أن يعبر أن هناك علاقة شخصية بين أحمد دحلان وجمعية بودي أوتومو، وشركة إسلام، وجمعية الخير. وعلى وجه الخصوص، يعرف دحلان جمعية بودي أوتومو بواسطة جويو سومارتو، عضو جمعية بودي أوتومو في يوجياكرتا والذي له علاقة حميمة مع دكتور واحدين سوديرو هوسودو، أحد هيئة القيادات لتلك الجمعية. ومن ذلك الحين، اشترك في لقاءات واجتماعات عقدها بودي أوتومو رغم أنه لم يقيد بعد في عضوية الجمعية، إلى أن تم تقييده رسميا بهذه الجمعية سنة ١٩٠٩م ويشتغل بمنصب عضو هيئة الجمعية فيما بعد. وفي سنة ١٩١٠م، اشترك دحلان في جمعية الخير والتي أكثر أعضاءها الجالية العرب. ومشاركته في الجمعية –وجمعية بودي أوتومو على وجه الخصوص- تعطيه المعلومات والخبرات الكثيرة عن كيفية إدارة الجمعية الحديثة، كما استفاد من جمعية الخير الأنشطة الاجتماعية، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بإنشاء المؤسسة التعليمية وإدارتها. وهذا لشيء جديد بالنسبة لأحمد دحلان وله أثر كبير على الخطوات والتخطيطات التي رسمها ونفذها، في الأيام المقبلة، مثل إنشاء المدرسة على نمط غربي أو تأسيس الجمعية (محمدية).

وبالفعل، أنشأ أحمد دحلان مدرسة على نظام غربي يتعلم فيها التلاميذ على صفوف معينة. وبعد فترة من الزمان تطورت المدرسة إلى أن أصبحت جمعية منظمة باسم جمعية "محمدية"، تفاؤلا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم. وجدير بالذكر، أن الأسباب التي تدفع إلى تأسيس الجمعية هي :

١. إن الأمة الإسلامية لم يلتزموا بتوجيهات القرآن والسنة النبوية، ما يسبب انتشار المفاهيم والممارسة الدينية المخالفة للقرآن والسنة.
٢. عدم وجود الوحدة والاتحاد بين الأمة الإسلامية، وذلك لفقدانهم الأخوة الإسلامية وعدم وجود منظمة إسلامية قوية.
٣. إن بعض المؤسسات التربوية قد فشلوا في إنتاج الكادرين المسلمين، لعدم لياقتهم في ملئ متطلبات العصر.
٤. كثير من الأمة الإسلامية يعيشون في التعصب والتقليد والدوجماتي.
٥. انتشار التيار التبشيري والتنصيري من قبل المستعمرين الغرب[٢٧].

وعليه، فإن جمعية محمدية لها سمات منها :

- يهدف إنشاء الجمعية الخدمة الاجتماعية والتربوية على سواء. وذلك من أجل نشر الإسلام رحمة للعالمين.
- تنظمت الجمعية من أجل تنعيش الأنشطة التعليمية وتوجيهها إلى التقدم. وذلك من أجل مواجهة التحديات الغربية والقضاء على التأخر والجهالة التي يعانى منهما الأمة الأسلامية.
- تأسست الجمعية على أساس إرجاع التقاليد والمفاهيم والممارسات الدينية إلى ما صح من الكتاب والسنة. وذلك بطريقة الدعوة المقنعة بعيدة عن الإكراه والإجبار. بل ويظهر

[٢٧] يونس سلام، ص ٣٣

تنازل الشيخ عن موقفه – في حادثة اتجاه القبلة- حيث آثر بناء المصلى الشخصي المتجهة قبلتها إلى الغرب الشمالي على إكراه الناس على تغيير اتجاه قبلة مساجدهم ومصلياتهم التي تتجه إلى الغرب تماما. وعلى الرغم من ذلك، فإن الدعوة المحمدية تنبني على دقيق الفكر والبحث عن الحق بعيدا عن التقليد الأعمى.

هناك خلفيات لإنشاء جمعية "محمدية"، ومنها الخلفية الداخلية. يعنى ما ينبت في نفس أحمد دحلان إثر معاملته مع رواج التجديد في ذلك العصر ومؤلفاتهم.

وليس من باب المغالاة أن يقال إن جمعية محمدية هي جمعية وسطية معتدلة. وقد كانت منذ تأسيسها لم تخض في القوة السياسية مثل "شركة إسلام"، كما أنها –على حسب رأي دليار نور- لم تكن على تطرف "جمعية الاتحاد الإسلامي" في الآراء والمواقف، رغم اشتراكهما في إبداء نوع من الحركة الإسلامية المعاصرة. وفي العقيدة، رغم ما قالوا من أن جمعية محمدية تتسم بلون السلفية، إلا أنها من حيث الطبيعة والاتجاه يمكن أن يقال سلفية تجديدية. وصنفها أزيوماردي أزرا ضمن السلفية الوسطية، للتفريق بينها وبين السلفي الذي يظهر نوعا من اللفظية والأفكار الجامدة[٢٨].

ثم إن مؤسسها –كياهي الحاج أحمد دحلان- نفسه في كثير من الأحيان يذكر تعلقه بابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبدة ومحمد رشيد رضا وغيرهم من المجددين المعاصرين. ولكن على حسب بحث دقيق فإنه أقرب إلى محمد عبده من غيره ما يظهر على ذلك سمة الاعتدال والوسطية. وفي سياق خاص، يمكن اعتباره ميلا إلى الثقافات المحلية، وذلك لأنه ولد وترعرع وتربى في مركز الثقافات

[٢٨] دليار نور، الحركة الإسلامية المعاصرة بإندونيسيا، مجمع البحث والتنمية في الاقتصاد والاجتماع، جاكرتا، ١٩٨٠، ص ٦٧

الجاوية، وهي سلطنة يوجياكرتا. كما أن له علاقة بالقوميين في جمعية بودي أوتومو، والاشتراكيين اليساريين من خلال زعيمهم سيماؤن، ورجال شركة إسلام مثل تشوكرو آمينوتو وآجوس سالم.

إن جمعية محمدية رغم أن كان لها تقاطع مع الحزب الإسلامي "ماشومي" (١٩٤٥-١٩٥٩)، إلا أن ذلك لم يجعلها حزبا سياسيا رغم أن أية حركة اجتماعية لا تنفصل انفصالا تاما عن تأثير السياسة وعمليتها في تنمية البلاد نحو ما هو أفضل. أضف إلى ذلك أن محمدية بصفتها جمعية منذ إنشائها لم تزل تتمسك بالخطة بأنها ليست جزءا سياسيا ولا علاقة لها بأية قوة أو أحزاب سياسية.

وعليه، فإن محمدية تتميز عن غيرها من الحركات الإسلامية التي تجعل السياسة مجالا من مجالات حركاتها، سواء على نوع جانبي أو جوهري من المجال الدعوي. نعم، إن محمدية ثيولوجيا تؤمن بأن الإسلام شامل على جميع أبعاد الحياة بما فيها السياسة. ولكنها ترى أن السياسة من الأمور الدنيوية التي تتحقق من خلال الاجتهاد بمعناه الحرفي. كما أنها لا تقارن المجال السياسي بالمجال الدعوي في تربية المجتمع. إن محمدية، مثل نظيرها الإسلام الإصلاحي، رغم اعترافها بشمولية الإسلام بما فيها السياسة إلا أنها لا تماثل الإسلام بالسياسة.

ولم تكن المحمدية مثل حركات إسلامية أخرى والتي تقارن الدعوة والسياسة باعتبارهما نوعا من الإسلام الشمولي أو الإسلام الإيديولوجي تحت ريادة الإخوان المسلمين وأعوانهم من الحركات الإسلامية الجديدة في إندونيسيا، كما أن محمدية لا ترى مأسسة الشريعة الإسلامية على وجه رسمي في دولة أو الكفاح على إنشاء الخلافة الإسلامية.

إن محاولة الجمع بين الإسلام (الدعوة الإسلامية) والسياسة السلطوية اجتماعيا تؤدي إلى الصدمة في نظام الدولة – الوطن أو الدول التي قد تم تشكيلها ومن بينها في العالم الإسلامي كما تثير الصراع والتوتر بين الحركات الإسلامية التي تشتغل في الدعوة الاجتماعية. ثم إن السحاق بين الدعوة الإسلامية والحركة السياسية هو الآخر يفتح إمكانيات سياسية في ثلاثة جوانب. وهي بين القوى السياسية، وبين المنظمات الإسلامية وبين الدولة. وعلاوة على ذلك فإن هذه المحاولة تنتهي بجعل الدعوة مجرد الوسيلة لنيل السلطة، بل أصبحت الدعوة تابعة وخاضعة للسياسة والسلطة.

ثم إن محمدية ليست على نوع من الحركات الإسلامية المتجهة إلى جهة واحدة وهي السياسة كما سبق بيانه. بل أنشطتها ترتكز على تقدم الإسلام دون المساس بالسياسة كما مارسها الحركات الإسلامية الإيديولوجية في الآونة الأخرة. وهذا ما يتميز به جمعية محمدية ويعتبر طبيعة لها بصفتها حركة إسلامية وسطية. كما أن مصدرها الإسلام الأصل المتقدم وليس إيديولوجيا سياسيا. وليست وسطية محمدية بمعنى الترهل الضعيف أو البراغماتية وذلك لأنها تكون على موقف حاسم فيما يتعلق بالعقائد والعبادات. وعلى الرغم من ذلك فإنها لا تدعي الأولوية في التدين والأحقية في الرأي كما لا تدعي الريادة البديلة في الإسلام مثل ما ادعى عليه الحركات الإسلامية الإيديولوجية في الآونة الآخرة.

الخاتمة

مما سبق بيانه يتبين أن جهود أحمد دحلان التربوية وجهاده في ترقية نوعية الأمة الإسلامية، يمكن بيانها كما يلي :

١. لا يقتصر جهود أحمد دحلان في التربية على الجوانب النظرية فحسب، بل يهتم إلى حد كبير بالجوانب التطبيقية سواء في العبادات المحضة أو العبادات الاجتماعية.

٢. يبدو أن أحمد دحلان له هموم كبيرة بالدعوة الإسلامية ليست بوصفها خطابا جافا لا طائل تحتها، ولكن من خلال الأعمال الواضحة التي ينتفع بها المجتمع مباشرة مثل مواساة الفقراء والمساكين والتعاليم الدينية لجميع الأطياف الاجتماعية وإنشاء دار اليتامى والمستشفيات.

٣. تتسم الجمعة التي أسسها أحمد دحلان بتجردها عن السياسة ما تتمتع الجمعية بالاستقرار والالتزام بتعاليم الإسلام الوسطية والارتياح بإعلاء شعار الإسلام "رحمة للعالمين".[]

المراجع

القرآن الكريم

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة ـ بيروت

أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، إحياء علوم الدين، دار االمعرفة - بيروت

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي ـ بيروت

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة، الجامع الصحيح سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي - بيروت محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، ١٩٨٧

دلیار نور، *Gerakan Modern Islam di Indonesia* الحركة الإسلامية المعاصرة بإندونيسيا، مجمع البحث والتنمية في الاقتصاد والاجتماع، جاكرتا، ١٩٨٠،

عاطف السيد، التربية الإسلامية : أصولها ومنهجها ومعلمها، المكتبة الشاملة، بدون تاريخ

عبدالله علوان، تربية الأبناء في الإسلام، ، دار السلام للطباعة، حلب، ١٩٨١،

محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه،

محمد عطية الإبراشي، روح التربية والتعليم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٠م

محمد نصر الدين أنصاري، *Matahari Pembaharuan : Rekam Jejak K.H Ahmad Dahlan* شمس التجديد، السيرة الذاتية لكياهي الحاج أحمد دحلان، ج.ب. فوبليشر، يوجياكرتا، ٢٠١٠م

يونس سلام، *KH. Ahmad Dahlan: Amal dan Perjuangan* كياهي الحاج أحمد دحلان، عمل وجهاد، مرجع التعاليم المحمدية، جاكرتا ١٩٦٨.

العدل في الإسلام (تنفيذ القصاص في الإسلام نموذجا)
The Justice in Islam: An Example of Qiṣāṣ Implementation in Islam

Muh. Syaifudin & Noor Achmad

Wahid Hasyim University, Semarang – Indonesia
e-mail: sayfuddin_iz@yahoo.com, noorunwahas@yahoo.com

ملخص البحث

يهدف البحث التصور الموضوعي عن القصاص في الإسلام كقضية عقوبية لها حساسية كبيرة في المجتمع سواء في العالم الإسلامي أو غيره نتيجة انتشار تيار العولمة الذي يورج ما يسمى بحقوق الإنسان والحرية. مستخدما المنهج الوصفي التحليلي، يقوم البحث باستكشاف الأساس الذي ينبني عليه الأحكام الإسلامية وقواعد العلاقات بين الأمة الإسلامية. إن الحدود في الإسلام لا ينبني إلا على العدل والمحافظة على المصالح الأكثر والأكبر. وتتسم الحدود في الإسلام بأنها لا تقوم إلا بنص صريح من الشارع، كما لا يتم الإجراء عليها إلا بعد ظهور بينة. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل هناك أركان وشروط كما أن هناك موانع قد تبطل تنفيذ الحدود، مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم : إدرؤا الحدود بالشبهات وقال : إدرؤا الحدود ما استطعتم. ثم إن القصاص، بعد تميزه بكونه وسيلة لحياة الناس، ومانعا باتا لجريمة القتل، فإن تنفيذه يتطلب إلى شروط كثيرة قد لا يتوفر إلا في حالة نادرة. وعليه، فإن النظرة إلى قضية القصاص في الإسلام لا بد أن يتكامل فيه النظرة إلى كل الجوانب والنواحي العديدة حتى يتضح مفهوم القصاص وماهيته بكل دقة.

الكلمات الرئيسية: الإسلام؛ العدل؛ القصاص؛ العقوبة

Abstract

This research aims to present an objective description about Qisas (retaliation) in Islam as one of sensitive punishments in the Muslim and world society as well. It is as the impact of spreading globalization that popularizes human rights and liberalism. This study uses descriptive analytical method. It tries to uncover basic foundation of Islamic law and principles of Muslim interrelation. Punishment in Islam is only based on justice and maintenance broader social welfare. It could not be executed if just be based on the assumption and not the concrete passages. Moreover, there are so many requirements and principles that must be fulfilled to implement it. The interesting one is the prophetic tradition ordered to avoid giving the punishment as we can. Thus the implementation of law in Islam like qisas (retaliation) is hardly practiced. In other word, views on Islamic law should be clearly objective and uses various perspectives to reach scientific and objective conclusion.

Keywords: Islam; justice, qiṣāṣ; punishment of crime

تمهيد

يعتبر العدل من القيم الإنسانية الأساسية التي جاء بها الإسلام، وجعلها من مُقَوِّمَاتِ الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية، والقرآنُ الذي هو المصدر الأول في الإسلام جعل إقامةَ القسط - أي العدل - بين الناس هدف الرسالات السماوية كلها، فقال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْـمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)[١]، وليس ثمة تنويه بقيمة القسط أو العدل أعظم من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الله تعالى رُسُله، وإنزاله كتبه؛ فبالعدل أُنْزِلَتِ الكتب، وبُعِثَتِ الرسل، وبالعدل قامت السموات والأرض[٢].

وفي تقرير واضح وصريح لإحقاق العدل وتطبيقه ولو كُنّا مبغضين لمن نَحْكُم فيهم، يقول الله تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّه وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ)[٣]، ويقول أيضًا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّه شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتّقْوَى وَاتّقُوا اللّهَ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[٤]، قال ابن كثير: أي لا يحملنّكم بُغْض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كُلِّ أَحَدٍ؛ صديقًا كان أو عدوًّا[٥].

---

[١] الحديد : ٢٥

[٢] يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده ص١٣٣

[٣] النساء : ١٣٥

[٤] المائدة : ٨

[٥] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق : سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، ج٣، ص ٦

فالعدل في الإسلام لا يتأثّر بحُبٍّ أو بُغْضٍ، فلا يُفَرِّقُ بين حَسَب ونَسَب، ولا بين جاهٍ ومالٍ، كما لا يُفَرِّقُ بين مسلم وغير مسلم، بل يتمتّعُ به جميعُ المقيمين على أرضه من المسلمين وغير المسلمين، مهما كان بين هؤلاء وأولئك من مودّة أو شنآنٍ.

والآيات الآمرة بالعدل في كتاب الله عامة تشمل العدل مع جميع الناس، وفي جميع القضايا، بل إن الله تعالى أمر بالعدل في معاملة المخالفين، وإن كانوا لنا أعداءً، قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّه شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّه إِنَّ اللَّه خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[٦].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية: "يعني بذلك جل ثناؤه يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم؛ وأما قوله (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا) فإنه يقول ولا يحملنكم عداوة قوم على أن لا تعدلوا في حكمكم وسيرتكم بينهم؛ فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة[٧]."

وقال فخر الدين الرازي: والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على أن تجوروا عليهم، وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم، وإن أساءوا إليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم. فهذا خطاب عام. ومعناه أمر الله تعالى إلى جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحدًا إلا على سبيل العدل والإنصاف، وترك الميل والظلم والاعتساف[٨].

---

[٦] المائدة : ٨

[٧] أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، ج ١٠، ص ٩٥

[٨] فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير و مفاتيح الغيب،

وقال ابن كثير في معنى الآية (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا) أي: لا يحملنكم بُغْض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوًا[٩].

ويلاحظ مما سبق أن أئمة المسلمين وعلماءهم فهموا من الآيات الواردة والآمرة بالعدل في كتاب الله شمولها للمؤمن وغيره، وعليه فلا عذر لمؤمن في ترك العدل أبدًا حتى ولو كان في الشهادة لكافر. والله تبارك وتعالى بيّن ذلك في كتابه، وقال فيه لنبيه وحبيبه (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّه وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا)[١٠].

وقد قرر النبي في سنته مبدأ العدل، ودعا إليه، وذكر عاقبة أهله، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي قال : (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حُكْمهم وأهليهم وما وُلّوا)[١١].

وقد تعلم أصحاب النبي منه مبادئ العدل والقسط، وطبقوا ذلك في حياتهم حتى مع أعدائهم، فهذه القصة التي وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من بعض صحابته. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (أفاء الله عز وجل خيبر على رسول الله، فأقرهم رسول الله كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة، فخرصها عليهم

---

[٩] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق : سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، ج٣، ص ٦٢.

[١٠] النساء : ١٠٥

[١١] رواه مسلم باب فضل الإمام العادل، حديث رقم ٤٨٢٥

الحَرْصُ تقدير حق المسلمين من تمر خيبر، ثم قال لهم : يا معشر اليهود، أنتم أبغض الخلق إليّ، قتلتم أنبياء الله عز وجل، وكذبتم على الله، وليس يحملني بُغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي، فقالوا بهذا قامت السماوات والأرض قد أخذنا، فاخرجوا عنا)[١٢].

وهذه شهادة من اليهود بحكم المسلمين بالعدل، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه مع بُغْضه لليهود؛ تحرى الحق والعدل معهم، وهذا من الإنصاف مع المخالف.

وعن احترام الإسلام أهل الملة الأخرى ما روى النسائي عن عمران بن الحصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أخاكم النجاشي قد مات فقوموا فصلوا عليه فقمنا فصففنا عليه كما يصف على الميت وصلينا عليه كما يصلى على الميت الصلاة على الجنازة قائما[١٣].

وهذا الحديث فيه دلالة على مشروعية الصلاة على موتى أهل الكتاب.

ومن مقتضيات العدل والإنصاف أيضًا مع المخالفين قبول الحق منهم، ومن ذلك ما جاء عن "قتيلة" امرأة من جهينة، أن يهوديًا أتى النبي فقال : (إنكم تنِدّدون وإنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة، فأمرهم النبي إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة، ويقولوا ما شاء الله ثم شئت)[١٤].

وأقوال العلماء تبين بكل وضوح وجلاء عظمة الإسلام وسماحته في علاقته

---

[١٢] رواه أحمد في مسنده، باب مسند جابر بن عبد الله، ج ٣١، ص ٣٧٤

[١٣] رواه النسائي، السنن الكبرى، ج ١، ص ٦١٦

[١٤] رواه النسائي، باب الأيمان والنذور

وتعامله مع الناس كافة، وقد تضمنت شريعة الإسلام كمًّا هائلاً من التشريعات التي كان هدفها وغايتها رعاية الحق وإقامة العدل، ودفع الظلم والبغي والعدوان بين أتباع الديانات الأخرى ممن يعيشون في مجتمع المسلمين، وقد تعلم المسلمون من خلال توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أن يعاملوا غيرهم بيسر وسماحة وحسن معاشرة، والإسلام في ميدان الحياة العامة حريص على احترام شخصية المخالف له، ومن ثَم لم يكرهه على الدخول في دين نبي الإسلام.

جاء في رواية أنه قدم على عمر بن الخطاب رجل من أهل العراق، فقال: لقد جئتك لأمر ما له رأس ولا ذنب. فقال عمر: ما هو؟ قال: شهادات الزور ظهرت بأرضنا. فقال عمر: أو قد كان ذلك؟! قال نعم. فقال عمر: والله لا يؤسر رجل في الإسلام بغير العدول[١٥]. قال عمرو بن العاص: لا سلطان إلا بالرجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل.

منهج البحث

استخدم هذا البحث بالمنهج الوصفي التحليل حيث يتم فيه تصفح المراجع الأساسية والإضافية فيما يتعلق بالموضوع من القواعد والأسس التي ينبني عليها الإسلام في تشريعاته، وما هو إلا العدل الذي تتميز به الإنسانية من أهل الأديان والثقافات، كما يتم فيه الاطلاع على أقوال العلماء المتقدمين والمتأخرين ليتكامل فيه النظرة المصيبة وبالتالي النتائج الصحيحة.

[١٥] رواه مالك في الموطأ، ٢/٧٢٠

العدل سمة الوسطية التي يفتخر بها الإسلام

قال الجرجاني في التعريفات : العدل عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط. وفي القرآن كلمة قرآنية وجيزة عظيمة تتصور عن لفظ العدل كما ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث فسر قوله تعالى: (أُمَّةً وَسَطًا)[١٦]، بقوله: عدولا، وذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري، حيث قال -رضي الله عنه-: "الوسط العدل"[١٧]، وفي رواية الطبري: قال: (أُمَّةً وَسَطًا) عدولا[١٨].

وقال القرطبي -رحمه الله-: الوسط: العدل، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها، ثم قال: قال علماؤنا: أنبأنا ربنا تبارك و تعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة، وتولية الشهادة على جميع خلقه فجعلنا أولا مكانا، وكنا آخرًا زمانا كما قال -عليه السلام-: "نحن الآخرون والأولون"[١٩]، وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلا"[٢٠].

ومما يدل على أن العدل من ملامح الوسطية قول الطبري -رحمه الله-: وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط العدل، وذلك معنى الخيار، لأن الخيار من الناس عدولهم[٢١] ثم ساق الأدلة من السنة وأقوال السلف في ذلك.

---

[١٦] سورة البقرة: ١٤٣

[١٧] أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر (٣٧٨/١١) رقم الحديث (٦٥٢٨)، رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) (١٧٧/٥) رقم (٤٤٨٧).

[١٨] تفسير الطبري (٦/٢).

[١٩] رواه مسلم كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٥٨٥/٢ رقم الحديث ٨٥٥).

[٢٠] انظر: تفسير القرطبي (١٥٥/٢).

[٢١] انظر: تسير الطبري (٧/٢).

العدل من الأسس والقيم التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية، فأنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله، (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)[٢٢] أي العدل، فما من كتاب أنزل ولا رسول إلا أمر أمته بالعدل، وأوجبه عليها، والأمم بين طائع آخذ منه بنصيب، وحائد مائل عن العدل والقسط بجهل أو هوى، والرسل ما تزال تجدد ما نسيته الأجيال، وتذكر الناس بما نسوا إلى أن ختمت الرسالات بخاتم الأنبياء محمد -صلى الله عليه وسلم-. ولما كانت هذه الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات، والنبي -صلى الله عليه وسلم- خاتم الأنبياء والرسل، وهذه الأمة خاتمة الأمم، والأمة التي جعلها الله شاهدة على الناس وقيمة على البشرية، تبلغها دين الله، وتشهد لها بالإيمان أو عليها بالكفر والعصيان: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) فقد كان العدل من أهم ما يجب على هذه الأمة تنفيذه وممارسته، بل هو من أعظم ما يميزها عن الأمم الآخرين. ولم يكتف الحق تبارك وتعالى بإيجاب العدل على هذه الأمة، بل أراد منها أن تجعله خلقا من أخلاقها، وصفة من صفاتها، وصبغة تصطبغ بها من دون الناس. فأمرها أن تكون قائمة بالعدل، بل قوامة به بين الناس لله -عز وجل- لا لأي شيء آخر فلا تحابي فيه قريبا لقرابته ولا تضار عدوا لعداوته: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[٢٣].

العقوبة في الإسلام صورة واضحة مثلى للعدالة

قد يفهم بعض الناس في خاطر بالهم أن العدل لا ينفصل عن العقوبة. فإقامة العقوبة

[٢٢] الحديد : ٢٥

[٢٣] المائدة: ٨

بما فيها الحد والتعزير والقصاص وما إلى ذلك، تعتبر إقامة للعدل. وفي جانب آخر يدعى بعض الناس أن إقامة العقوبة بالصور المطبقة في الإسلام من التقاليد والممارسة المتأخرة. إلا أننا إذا أمعنا النظر إلى العقوبة في الإسلام يتضح بين أيدينا أنها تضبطها قواعد وقيود بها يتحقق المغزى الأسمى من العدالة الإسلامية. وفيما يلي قواعد تفيدنا إلى ذلك :

القاعدة الأولى : كل إنسان برئ حتى تثبت إدانته

من الأصول المقررة في الشَّرِيعَة الإسْلاميَّة، أن الإنسان لا يسأل إلا عن فعله، ولا يتحمل إلا نتيجة عمله، قَالَ الله تعالى: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)[٢٤] وقَالَ تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)[٢٥]

وهذا يقتضي التأكد من نسبة الفعل المحرم إلى الإنسان المتهم به بشكل قاطع لا يدع مجالاً للشكّ. ويظهر حرص الإسلام على هذه الناحية بعنايته الكبيرة بمسائل الإثبات على الجريمة التي ارتكبها المتهم ووضعه القواعد الدقيقة التي تنظمها. ومن القواعد الفقهية الكلية في الشَّرِيعَة الإسْلاميَّة، قاعدة الأصل براءة الذمّة[٢٦] وهي تؤكد حرص الإسلام على فكرة أن البراءة هي الأصل حتى تثبت الإدانة.

وتطبيقاً لهذه القاعدة المهمة نجد في تشريع العقوبات الإسلامي قاعدتين مهمتين تتفرعان عنها[٢٧] وهما :

---

[٢٤] سورة الأنعام : ١٦٤

[٢٥] سورة المدثر: ٣٨

[٢٦] لأن الإنسان خُلق بريئا غير مشغول بحق من الحقوق. انظر: الزرقاء، الشيخ أحمد بن الشيخ محمد شرح القواعد الفقهيّة ، ص ١٠٥

[٢٧] انظر حول ذلك: عودة، عبد القادر: التشريع الجنائي الإسلامي، ج١ ص٢٠٩

درء الحدود بالشبهات

الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة

وهاتان القاعدتان تهتمان بتحقيق العَدالَة والخوف من الشطط في تطبيق النُّصُوص الجزائية الذي قد يؤدي إلى قذف تهمة هو برئ منها، كما تساعدان على إيجاد جو من الأمن والطمأنينة في نفس كل إنسان من أن تلصق به تهمة أو فعل لا يدَ له فيه.

ولا شكّ أن إقامة الحدّ بالتهم إضرار بمن لا يجوز الإضرار به وهو ممنوع عقلاً وشرعاً. فلا يجوز منه إلا ما أجازه الشَّارِع كالحدود والقصاص وما أشبه ذلك بعد حصول اليقين، لأن مجرد الحدس والتهمة مظنة للخطأ والغلط وما كان كذلك فلا يستباح به تأليم المسلم وإضراره بلا خلاف[٢٨].

أ- درء الحدود بالشبهات:

وأصل هذه القاعدة ما ورد في السنّة من قوله صلى الله عليه وسلم : (ادرؤوا الحدود بالشبهات)[٢٩].

وهذا الحديث وإن كان موقوفاً، فله حكم المرفوع ولأن الحدّ عقوبة كاملة، فتستدعي جناية كاملة ووجود الشبهة ينفي تكامل الجناية[٣٠].

---

[٢٨] الشَّوْكَاني، نيل الأوطار، ج٧، ص١٠٤.

[٢٩] قَالَ صاحب كشف الخفاء: أخرجه ابن عدي ومسدد موقوفاً على ابن مسعود، أنه قَالَ : ادرؤوا الحدود عن عباد الله عزّ وجلّ. ورواه البَيْهَقِيّ عن عاصم بلفظ : «ادرؤوا الحدود بالشبهات، ادفعوا القتل عن المسلمين ما استطعتم ». وقَالَ أنه أصحّ ما فيه.

[٣٠] الزحيلي، وهبة: الفقه الإسلامي وأدلته، ج ٦، ص٣٠

وعن أبي هريرة قَالَ قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً)[٣١]. وعن عائشة قَالَت : قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجاً، فخلوا سبيله)[٣٢].

فالحدّ عقوبة من العقوبات التي توقع ضرراً في جسد الجاني وسمعته، ولا يحل استباحة أحد، أو إيلامه إلا بالحق. ولا يثبت هذا الحق إلاّ بالدليل الذي لا يتطرق إليه ارتياب. فإذا تطرق إليه الشكّ كان ذلك مانعاً من اليقين الذي تُبنى عليه الأحكام. ومن أجل هذا كانت التهم والشكوك لا عبرة لها ولا اعتداد بها لأنها مظنة الخطأ.

قَالَ ابن المنذر[٣٣] : أجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم على أنّ الحدود تدرأ بالشبهات، فلو زنى بجارية له فيها شرك، وإن قلّ، أو لولده، لم يُحدّ، لقوله عليه السلام: (أنت ومالك لأبيك)؛[٣٤] وكذلك لو وطئ في نكاحٍ مختلف فيه أو مكره، أو سرق من مالٍ له فيه حق، أو لولده، وإن سفل من مال غريمه الذي يعجز عن تخليصه منه، بقدرِ حقه لم يُحدّ[٣٥].

---

[٣١] أخرجه ابن ماجة عن أبي هريرة وهو حديث صَحِيْح ، (٨٥٠/٢) رقم ٢٥٤٥، ومصنف ابن أبي شيبة (٥١١/٥).

[٣٢] المستدرك على الصَحِيْحين ، (٤٢٦/٤) ، وقَالَ هذا حديث صَحِيْح ولم يخرجاه. سُنَن البَيْهَقِيّ الكبرى (٢٣٨/٨) ، (١٢٣/٩)وسُنَن الدَّارَقُطْنِيّ (٨٤/٣). مصنف ابن أبي شيبة (٥١٢/٥) مصنف عبد الرزاق (١٦٦/١٠)، وعلل التِّرْمِذِي للقاضي ، (٢٢٨/١)

[٣٣] ابن المنذر، هو محمد بن إبراهيم، أحد الأئمة الأعلام، الشَّافعِي ، نزيل مكة، توفي فيها سنة 319 هجرية. انظر: شَذَرات الذَّهَب، ج٢ ، ص 280، وطبقات الشَّافعِية، لابن هداية الله، ص٥٩.

[٣٤] رواه ابن ماجة، رقم ٢٢٩١، ٢٢٩٢. من حديث جابر، و أبو داود رقم ٣٥٣٠. والحاكم بالمستدرك ج٤ ص٣٨٤.

[٣٥] المقدسي، بهاء الدين عبد الرحمن، العدّة شرح العمدة، تحقيق : صلاح بن محمد عويضة، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ج٢، ص ١٦٧-١٦٨.

وقد عرّف الفقهاء الشبهة بقولهم: هي ما يشبه الثابت وليس بثابت أو هي وجود المبيح صورة مع انعدام حكمه أو حقيقته[٣٦].

ومن الأمثلة على الشبهة[٣٧]:

١. شبهة الملك في سرقة الملك المشترك، فمن سرق مالاً يشترك فيه مع آخر يدرأ عنه الحد. لأن السَّرِقَة هي أخذ مال الغير خفية ولأنه لم يأخذ مالاً خالصاً للغير وإنما أخذه متلبساً بماله.

٢. شبهة الملك في سرقة الأب من ابنه، فالأب حين يأخذ خفية من مال ولده ينطبق عليه تعريف السَّرِقَة ويستحق عقوبة القطع، ولكن الحد يدرأ عن الأب لشبهة تملك مال الولد، وهذه الشبهة أساسها قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « أنت ومالك لأبيك » وإذا كان الفقهاء قد اتفقوا[٣٨] على درء الحدود بالشبهات فهناك ما يراه البعض شبهة صالحة للدرء، بينما لا يراه البعض الآخر شبهة، ومن أمثلة ذلك :

نكاح الخامسة أو المتزوجة أو المعتدة أو المطلقة ثلاثاً فالإمام أبو حنيفة رضي الله عنه يدرأ الحد فيه ولو كان عالماً بالتحريم، لأن العقد في رأي الإمام أبي حنيفة شبهة، والشبهة تدرأ الحد.

---

[٣٦] ابن قُدامة ، المُغْني، ج ٨، ص١٨٢، الخطيب الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، ج٤، ص١٤٥،١٤٦. الشيرازي، المهذب في فقه الامام الشَّافِعِي، ج٢، ص٢٦٨.

[٣٧] انظر عودة، عبد القادر، التشريع الجنائي الإسلامي، ج١، ص٢٠٩.

[٣٨] انظر الشرح الكبير، ج ٤، ص٣١٣، الشرح الصغير، ج٤، ص٤٤٨، الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ج٧، ص٣٦، ابن الهمام، فتح القدير شرح الهداية، ج٤، ص١٤١، الخطيب الشربيني، مغني المحتاج الى معرفة الفاظ المنهاج. ج٤، ص١٤٤، البهوتي، كشاف القناع ج٦، ص٩٧ وما بعدها.

وتطبيقاً لقاعدة درء الحدود بالشبهات، روي عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنه قَالَ : لئن أعطل الحدود في الشبهات خير من أن أقيمها في الشبهات[٣٩]. وروى سعيد، قَالَ : حدثنا هاشم أن امرأة رفعت إلى عمر بن الخطَّاب ليس لها زوج وقد حملت. فسألها عمر، فقَالَت : إني امرأة ثقيلة الرأس وقع عليّ رجل وأنا نائمة، فما استيقظت حتى فرغ، فدرأ عنها الحد.

وروى البراء بن صبرة عن عمر أنه أُتي بامرأة حامل فادعت أنها أكرهت، فقَالَ : خلّ سبيلها وكتب إلى أمراء الأجناد أن لا يقتل أحد إلاّ بإذنه. وروي عن علي وابن عَبَّاس أنهما قَالا : إذا كان في الحدّ لعل وعسى فهو معطل. وروى الدَّارَقُطْنِيّ بإسناده عن عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعقبة بن عامر أنهم قَالَوا: إذا اشتبه عليك الحدّ فادرأ ما استطعت[٤٠]. وبهذا استدل الجمهور من الحنابلة والشَّافِعِية والحَنَفِيَّة على أنّ المرأة إذا ظهر بها حمل ولا زوج لها لم يلزمها بذلك الحدّ[٤١].

فدرء الحدود بالشبهات مما يؤكد أن الأصل هو براءة المتهم وأن إدانته تحتاج إلى إثبات قوي لأنها خلاف الأصل، ولذلك تنهار التهمة لأدنى شبهة. ولذلك قرر الأصوليون قاعدة "البراءة الأصلية" إعمالاً لاستصحاب الحال. فالأصل بقاء ما كان حتى يثبت ما يغيره[٤٢]. فإن البراءة الأصلية تبقى قاعدة لها أهميتها سواء استندت إلى مصدر شرعي أو كانت مجرد حجة وسواء أكانت الحجة حجة إثبات أو لمجرد الدفع[٤٣].

---

[٣٩] أبو يوسف: كتاب الخراج ، ص(٥١٣) والحديث في مصنف ابن أبي شيبة (٥/٥١١) رقم ٢٨٤٩٣.

[٤٠] ابن قُدامة المقدسي : المُغْني مع الشرح الكبير (١٠/١٩٢-١٩٤). التشريع الجنائي في الإسلام، ص ٢٢٦

[٤١] ابن قُدامة: المُغْني (١٠/١٩٢-١٩٤).

[٤٢] خلاف، علم أصول الفقه ، ص(٩٢-٩٣).

[٤٣] عثمان، د. محمد فتحي: من أصول الفِكْر السياسي، ص(٢٧٢).

هذا وإن درء الحدود بالشبهات قد يأتي نتيجة تحقيق القاضي لظروف المتهم الفردية، وقد يأتي نتيجة تحققه من وجود ظروف اضطرارية طارئة عامة. ذلك أن من الأصول الشَّرْعية أن الضرورات تبيح المحظورات[٤٤]، وقد قَالَ تعالى: (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ)[٤٥]. وقَالَ تعالى: (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)[٤٦]. وقَالَ تعالى: (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[٤٧]. وقاعدة الشَّرِيعَة في كلّ أحكامها أنها تتبع الوسع والاستطاعة على أن يكون تقدير ذلك بإخلاص وأمانة ومراقبة لله الذي لا تخفى عليه خافية، وقد قَالَ تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)[٤٨]. وقَالَ تعالى : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)[٤٩]. وقَالَ تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا)[٥٠]. وقد أعفى عمر بن الخطَّاب من الحد غلاماً عند قومٍ من مزينة أتهم بالسَّرِقَة تأسيساً على أن المعروف عن قومه أنهم يجيعون غلمانَهم، حتى إن أحدهم لو أكل ميتة لحلّت له وأغرم المزني (وهو المجني عليه المسروق منه) غرامة توجعه[٥١]. كما روى أن عمر اعتبر المجاعة في عام الرمادة شبهة تدرأ حدّ السَّرِقَة لوجه عام عن أي متهم باقتراف الجريمة[٥٢].

---

[٤٤] انظر الزرقاء، الشيخ أحمد بن الشيخ محمد، شرح القواعد الفقهية، القاعدة العشرون « المادة ٢١» ، ص١٨٥.

[٤٥] سورة الأنعام : ١١٩

[٤٦] سورة البقرة : ١٧٣

[٤٧] سورة المائدة : ٣

[٤٨] سزرة البقرة : ٢٨٦

[٤٩] سورة التغابن : ١٦

[٥٠] سورة الطلاق : ٧

[٥١] أكرم ضياء العمري، عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العبيكان، ص ١٤٨

[٥٢] نفس المرجع والصفحة

وهكذا يتضح تأكد الشَّرِيعَة لبراءة الإنسان التي هي الأصل، وتحديد الشروط والضوابط اللازمة للإدانة والعقوبة بالحدّ ولا مانع بالطبع من العقاب بالتعزير، إذا رأى القاضي وجود الشبهة التي تدرأ الحد.

ب- الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة:

وأصل هذا المبدأ قول الرسول عليه السلام : إن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة[٥٣]"، ومعنى هذا المبدأ أنه لا يصح الحكم بالعقوبة إلا بعد التثبت من أن الجاني ارتكب الجريمة، وأن النص المحرم منطبق على الجريمة. فإذا كان ثمة شك في أن الجاني ارتكب الجريمة، أو في انطباق النص المحرم على الفعل المنسوب للجاني، وجب العفو عن الجاني، أي الحكم ببراءته. لأن براءة المجرم في حال الشك خير للجماعة، وأدعى إلى تحقيق العدالة من عقاب البرئ مع الشك.

ومبدأ الخطأ في العفو ينطبق على كل أنواع الجرائم، فهو ينطبق على جرائم الحدود، وجرائم القصاص والدية، وجرائم التعازير. ويمكن القول بأن مبدأ درء الحدود بالشبهات على أهميته يعتبر تطبيقاً لمبدأ الخطأ في العفو، على الأقل في الحالات التي يؤدي فيها درء الحد لتبرئة الجاني[٥٤].

القاعدة الثانية : لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص

إنّ الشَّرِيعَة الإسْلاميَّة هي أساس الحكم على الجريمة والعقاب، وقد سبق الفقهاء

[٥٣] رواه الترمذي في سننه، ج ٥ ص ٣٢٢، والدار قطني في سننه، ج ٣، ص ٨٤

[٥٤] القاضي الشهيد عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، ص ٢٣٦

المسلمون غيرهم إلى معرفة قاعدة : لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص[٥٥] من خلال تقريرهم للقاعدتين التاليتين:

١. لا حكم لأفعال العقلاء قبل ورود النّص.

أي أن أفعال المكلف المسؤول لا يمكن وصفها بأنها محرمة ما دام لم يرد نص بتحريمها، ولا حرج على المكلف أن يفعلها أو يتركها حتى ينص على تحريمها.

٢. الأصل في الأشياء الإباحة، والأصل في الأفعال التقيد بالحكم الشَّرْعي.

فالأشياء والأفعال لا يجوز أن تعطى حكماً إلا بعد ورود دليل شرعي على هذا الحكم. قَالَ الله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)[٥٦]. وقَالَ تعالى: (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)[٥٧] ولأن الحكم لا يمكن أن يثبت إلا بأحد اثنين، إما الشَّرْع وإما العقل. أما العقل فلا محل له هنا لأن القضية قضية إيجاب وتحريم، والعقل لا يمكن أن يوجب أو يحرم، وليس ذلك منوطاً به وإنما هو منوط بالشَّرْع، فتوقف الحكم على الشَّرْع[٥٨].

وبما أنه لا شرع قبل وروده ، فتوقف الحكم على ورود الشَّرْع من الله، أي على مجيء الرسول بالنسبة للشريعة كلها، والدليل الشَّرْعي بالنسبة للمسألة المراد الاستدلال عليها. وعليه، فقبل بعثة الرسول لا يقَال إنّ حكم الأشياء حلال أو حرام لأنه لا حكم لها،

[٥٥] انظر الزحيلي، وهبة: الفقه الإسلامي وأدلته ج ٤ ص٢٨٨، عودة، عبد القادر، المرجع السابق، ج١ ص ١١٥.

[٥٦] سورة الإسراء : ١٥

[٥٧] سورة النساء : ١٦٥

[٥٨] النَّبهَانِيّ، تقيّ الدِّين، الشخصية الإسْلامِيَّة، دار الأمة للطباعة والنشر، ج ٣ ص١٢.

وكذلك الأفعال. بل للإنسان أن يفعل ما يريد دون التقيد بحكم، ولا شي عليه عند الله حتى يبعث إليه رسولاً، وحينئذ يتقيد بأحكام الله التي بلغه إياها الرسول حسب ما بلغها له.

وأما بعد بعثة الرسول فإن رسالته عامة كل شيء ومبينة لكل شيء، قَالَ الله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)[٥٩]. وقَالَ تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[٦٠]، فالشَّرِيعَة لم تهمل شيئاً من أفعلا العباد مهما كان، فهي إما تنصب دليلاً له بنص من القرآن والحديث، وإما أن تضع إمارة في القرآن والحديث تنبه المكلف على مقصدها فيه وعلى الباعث على تشريعه لأجل أن ينطبق على كلّ ما فيه تلك الأمارة أو هذا الباعث، ولا يمكن شرعاً أن يوجد فعل للعبد ليس له دليل أو أمارة تدل على حكمه. لعموم قوله تعالى: (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)[٦١]. وللنص الصريح بأن الله قد أكمل هذه الدين[٦٢].

هذا بالنسبة للأفعال، أما بالنسبة للأشياء وهي متعلقات الأفعال فإن الأصل فيها الإباحة ما لم يرد دليل التحريم، فالأصل في الشيء أن يكون مباحاً ولا يحرم إلا إذا ورد دليل شرعي على تحريمه وذلك لأن النُّصُوص الشَّرْعية قد أباحت جميع الأشياء وجاءت هذه النُّصُوص عامة تشمل كل شيء، قَالَ تعالى: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً)[٦٣]. فإنه تعالى جعل الأصل الإباحة، والتحريم مستثنى[٦٤].

---

[٥٩] سورة النحل : ٨٩

[٦٠] سورة المائدة : ٣

[٦١] سورة النحل : ٨٩

[٦٢] انظر الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤٠٤ هـ، ج١ ص ١٣١ بتصرف. وهرموش : غاية المأمول، ص ٨٦-٨٧.

[٦٣] سورة الأنعام : ١٤٥

[٦٤] النَّبهاني، تقيّ الدِّين، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٩-٢٠

وهكذا جميع الأشياء التي جاءت في إباحة الأشياء جاءت عامة فعمومها دلّ على إباحة جميع الأشياء، فتكون جميع الأشياء جاءت بخطاب الشَّارِع العام، فإذا حرم شيء فلا بدّ من نصّ مخصص لهذا العموم يدل على استثناء هذا الشيء من عموم الإباحة كقوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ)[٦٥]، وقوله صلى الله عليه وسلم: حرّمت الخمرة لعينها[٦٦]. فيكون ما نصّ عليه الشَّرْع من تحريم أشياء هو مستثنى من عموم النص فهو على خلاف الأصل.

ومن هنا يتقرر أن الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد دليل التحريم والأصل في الأفعال التقيد بالحكم الشَّرْعي. والأشياء لا توصف إلا بالحل أو الحرمة، بخلاف الأفعال، فإن خطاب الشَّارِع المتعلق بها جعلها قسمين أحدهما خطاب التكليف والآخر خطاب الوضع.

وعليه، فإنه لا يمكن في إطار العقوبات اعتبار فعل أوترك جريمة بنص صريح يحرم الفعل أو الترك وإذا لم يرد نص يحرم الفعل أو الترك، فلا مسؤولية ولا عقاب على فاعل أو تارك، فلا جريمة إلا بعد بيان ولا عقوبة إلا بعد إنذار، وإنّ الله لا يأخذ الناس بعقاب إلا بعد أن يبين لهم وينذرهم على لسان رسله وأنه ما كان إلا ليكلف نفساً إلا بما تطيقه.

وبهذا التقرير لهذه القاعدة يتبين ما تمتاز به الشَّرِيعَة الربانية على القوانين الوضعية التي لم تتعرف لهذه القاعدة إلا في أعقاب القرن الثامن عشر الميلادي حيث أدخلت في التشريع الفرنسي كنتيجة من نتائج الثورة الفرنسية، وقررت لأول مرّة في إعلان حقوق الإنسان الصادر في سنة ١٧٨٩م، ثمّ انتقلت القاعدة من التشريع الفرنسي إلى غيره من التشريعات الوضعية.

---

[٦٥] سورة المائدة : ٣

[٦٦] المعجم الأوسط للطبراني (٣٧٥/٣)، وسُنَن البَيْهَقِيّ الكبرى، (٢١٣/١٠)، والدراية في تخريج أحاديث الهدايّة، (٢٥١/٢)، ونصب الرَّأية ، (٢٩٩/٤)

وإذا كانت الشَّرِيعَة تقضي بتطبيق القاعدة على كلّ الجرائم، فإنّ الشَّرِيعَة لا تطبق القاعدة على غرار واحد في كل الجرائم، بل إنّ كيفية التطبيق تختلف بحسب ما إذا كانت الجريمة من جرائم الحدود، أو جرائم القصاص والديّة، أو جرائم التعازير وهذا يرجع إلى حرص الشَّرِيعَة على تحقيق الغاية من العقوبة، وإلى حماية المجتمع بشكل لا يدع مجالاً للعابثين ولمعتادي الإجرام أن يعيثوا في المجتمع الفساد.

القصاص

من أهم السمات التي يتميز بها الشريعة الإسلامية الحنيفة عن القوانين الوضعية القصاص كعقوبة للجرائم. فالقصاص ثابت وأصيل وله سنده في القرآن والسنة والإجماع، وهو جوهر نظرية العقوبة في الشريعة الإسلامية. وإليكم توضيح ذلك، من حيث المفهوم والمضمون والأنواع والأحكام والنطاق.

تعريف القصاص

وللقصاص تعريف لغوي وتعريف شرعي.

القصاص لغة : المساواة علي الإطلاق ومعناه أيضا التتبع ومنه قصص السابقين بمعني أخبارهم[٦٧]. والقصاص مأخوذ من قص الأثر، وهو إتباعه، ومنه القاص لأنه يتبع الآثار، والأخبار، وقص الشعر أثره. والقِصاص أَن يفعل به مثل فعله من قتل أَو قطع أَو ضرب أَو جرح والقِصَاصُ الاسم ومنه حديث عمر رأَيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أُتِيَ بشَارِبٍ فقال لمُطيع بن الأَسود اضرِبْه الحَدَّ فرآه عمرُ وهو يَضْرِبُه ضرباً شديداً فقال قتلت الرجل كم ضَرَبْتَه ؟ قال سِتِّينَ فقال عُمر أَقِصّ منه بِعِشْرِين أَي اجعل شدة الضرب الذي ضرَبْتَه

[٦٧] الإمام محمد أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي، الجزء الثاني، العقوبة، المرجع السابق، ص: ٢٥٢

قِصاصاً بالعشرين الباقية وعوضاً عنها[٦٨]. فكأن القاتل سلك طريقا من القتل فقص أثره فيها، ومشي علي سبيله فيها، ومن ذلك قوله تعالى: (فارتدا علي آثارهما قصصا)[٦٩].

والمقصود بالقصاص في الشرع: أن يعاقب المجرم بمثل فعله فيقتل كما قتل ويجرح كما جرح[٧٠]. وهو عقوبة مقدرة ثبت أصلها بالكتاب، وثبت تفصيلها بالسنة، وهو المساواة بين المساواة بين الجريمة والعقوبة[٧١].

ويوجد بين المعني اللغوي والمعني الشرعي تناسب، لأن القصاص يتتبع فيه الجاني، فلا يترك بدون عقاب، ولا يترك المجني عليه من دون أن يشفي غليله. والقصاص هو عقوبة الدماء بشكل عام سواء أكانت دماء موضوع الاعتداء فيها النفس أم كان اعتداء موضوعه طرف من الأطراف، أم كان اعتداء موضوعه جرح من الجروح، وضمان المتلفات، أي التعويض بالمثل في الأموال والأسواق، والقصاص موجود في كل العقوبات الإسلامية غير الحدود، وهناك قصاصا قدره الشارع بالنص، وقصاصا آخر لم يحدده الشارع، وترك تحديده لولي الأمر.

ينقسم القصاص من حيث نوع الجريمة إلي نوعين هما: (١) قصاص في النفس، أي قتل النفس، عمدا أو شبهة عمد. (٢) قصاص فيما دون النفس، أي في الأطراف والجروح.

من التعريفات السابقة للقصاص يتبين لنا أن القصاص جزاء وفاق للجريمة فالجريمة

---

[٦٨] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر — بيروت، ج ٧، ص ٧٣

[٦٩] سورة الكهف الآية : ٦٤

[٧٠] القاضي الشهيد عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، الجزء الأول، المرجع السابق، ص. ٦٦٣

[٧١] الإمام محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص. ٢٥٢

اعتداء علي النفس الإنسانية، فمن العدالة أن يؤخذ المجرم بجريمته بمثل فعله، وليس من المعقول أن نفكر بالرحمة بالجاني ولا نفكر في ألم المجني عليه وشفاء غيظه، فالقصاص يحمي حياة الناس لأن القاتل إذا حرم أحد من الحياة فأنه يحرم منها، وبالتالي يحافظ علي حياته، لذلك فالقصاص حياة لأنه يحافظ علي الحياة.

الأساس الشرعي للقصاص

القصاص ثابت في الشريعة الإسلامية بالنص عليه في القرآن الكريم والسنة النبوية وفعل الرسول صلي الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون والصحابة رضوان الله عليهم وإجماع الأمة :

القصاص في القرآن الكريم

ورد النص علي القصاص في القرآن الكريم في عدة آيات هي :

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلّكُمْ تَتَّقُونَ.[٧٢]
- مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمّ إِنّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ[٧٣].

[٧٢] سورة البقرة الآية : ١٧٨– ١٧٩

[٧٣] سورة المائدة الآية : ٣٢

- وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.[٧٤]

القصاص في السنة النبوية الشريفة

وردت أحاديث في السنة النبوية الشريفة دعت إلي الأخذ بالقصاص وحثت عليه أي في السنة القوليه، وهناك من السنة الفعلية ما أخذ بذلك بالفعل، ومن الأحاديث النبوية ما يلي:

- قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: (من قتل قتلناه).
- وقوله صلي الله عليه وسلم: (كتاب الله القصاص).
- وقوله عليه الصلاة والسلام (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بأحدي ثلاث، الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)[٧٥].
- وعن سمرة قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: (مَن قتل عبده قتلناه ومَن جدع عبده جدعناه)[٧٦].
- وعن أنس بن مالك رضي أن جارية وجد رأسها قد رض بين حجريين فسألوها مَن صنع

[٧٤] سورة المائدة الآية: ٤٥

[٧٥] رواه البخاري في كتاب الديات(٦٨٧٨)، ورواه مسلم في كتاب القسامة(١٦٧٦)، وأبو داود في كتاب الحدود(٤٣٥٣) باب الحكم فيمن ارتد(١٢٤/٤) والترمذي في كتاب الديات (١٤٠٢) باب ما جاء لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأحدي ثلاث(١٩/٤)، والنسائي في كتاب تحريم الدم باب الصلب(١٠٢/٧)، وابن ماجه في الحدود(٢٥٣٤) باب لا يحل دم مسلم إلا بثلاث(٨٤٧/٢) وأحمد في مسنده(٣٨٢/١)والبيهقي في السنن الكبرى(٢٨٤/٨، ٢١٣)

[٧٦] رواه أحمد والأربعة وحسنه الترمذي وهو من رواية والنسائي بزيادة (مَن خصي عبده خصيناه) وصحح الحاكم هذه الزيادة

بك هذا؟ فلان حتى ذكروا يهودياً فأومأت برأسها فأخذ اليهودي فأقر فأمر رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يرض رأسه بين حجريين[٧٧].

الإجماع

وعليه إجماع الأمة والأئمة بلا خلاف، وعليه إجماع الصحابة والتابعين وتابعي التابعين[٧٨].

حكم القصاص

القصاص في الشريعة الإسلامية حكم فرض ثبت في القرآن الكريم (كتب عليكم القصاص) فهو في منزلة الصيام والجهاد من حيث الحكم فقد جاء في القرآن الكريم (كتب عليكم الصيام)[٧٩] و(كتب عليكم القتال)[٨٠]. وقال تعالي في سورة النساء الآية : ١٠٣، (إن الصلاة كانت علي المؤمنين كتابا موقوتا) أي أنه من الفروض الثابتة.

الحكمة من القصاص في معان بلاغية هي :

١. في الآية (ولكم في القصاص حياة) يانٌ لمحاسِنِ الحُكم المذكور على وجهٍ بديعٍ لا تُنال غايتُه حيث جُعل الشيءُ محلاً لضِدِّه ، وعُرِّف القصاص ونُكِّر الحياةُ ليدل على أن في هذا الجنس نوعاً من الحياة عظيماً لا يبلُغه الوصفُ وذلك لأن العلمَ به يردَعُ القاتلَ عن القتل فيتسبَّب لحياةِ نفسَيْن، ولأنهم كانوا يقتُلون غيرَ القاتل والجماعةَ

[٧٧] متفق عليه وعلى لفظه

[٧٨] أنظر الإجماع لابن المنذر، ص:٧١، والمجموع للنووي(٢٠/٢٦٧/٢٦٦) والمغني لابن قدامه (٧/٦٣٥/٦٣٦، وبداية المجتهد(٢/٢٩٧/٢٩٨)

[٧٩] البقرة:١٨٣

[٨٠] البقرة : ٢١٦

بالواحد فتثورُ الفتنةُ بينهم ، فإذا اقتُصَّ من القاتل سلِم الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم[٨١].

٢. جعلت فائدة القصاص عامة تشمل المجتمع كله ولم تقصره علي ولي الدم وحده(المجني عليه) بدليل قوله تعالي في بداية الآية (ولكم) فالقصاص ليس انتقاما لفرد ولكن للمحافظة علي حياة الجماعة والمجتمع المسلم كله.

٣. إطلاق لفظ (القصاص) على العقوبة فيه حكمة أبلغ من العدالة لأن القصاص يتضمن المساواة بين الجريمة والعقوبة، مما يعد معه القصاص مانع قوي وسدا منيعا للجريمة، وبذلك يحيا المجتمع حياة هادئة هانئة مستقرة وتنعدم الجريمة في المجتمع، وهذه غاية لم تصل إليها النظم القانونية الوضعية حتى الآن، فالسياسة العقابية في أي نظام قانوني تهدف للمساواة بين الجريمة والعقوبة.

٤. يتبين من الآية أن حياة الجماعة في القصاص، لأن عدم وجود القصاص يؤدي إلي أهدار الدماء وكثرة القتل في المجتمع، مما يؤدي إلي الفوضى في المجتمع، مما يهدد حياة الجماعة ويهددها بالفناء.

٥. تشير الآية أن الحياة التى تستحق أن يطلق عليها حياة هي الحياة الهادئة المستقرة وهي التى تتحقق بالقصاص، والدليل على ذلك أن كلمة (حياة) جاءت في الآية نكرة والتنكير هنا للتفخيم والتعظيم.

٦. أن هذه الحكمة البالغة والغاية العظيمة لا تدركها إلا العقول النيرة السليمة التي تعرف جيدا مصلحة الجماعة، فالخطاب في الآية الكريمة لأولي الألباب فقال تعالي (يا أولي الألباب) وهم أصحاب العقول التي خلصت وبرأت من الأهواء والشهوات.

[٨١] أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٢٤٧/١)

٧. تعتبر هذه الآية ردا بليغا علي دعاة إلغاء عقوبة الإعدام، وتعضدها وتساندها وتؤكدها الآية (٣٢) من سورة المائدة، لأن إلغاء هذه العقوبة يعني كثرة القتل في المجتمع وانتشار الفوضى مما يأتي إلي انهيار هذه المجتمعات، فلا خوف من الحرمان من الحياة وبذلك تنتشر الجرائم الخطيرة التي تهدد كيان المجتمع كله.

وبالنسبة إلي الآية (٣٢) من سورة المائدة (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمّ إِنّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ).

فهذه الآية نزلت في حادثة قتل هابيل علي يد أخيه قابيل أبني آدم[٨٢]، والعلاقة بينها وبين القصاص بيان الداء والعلاج معا فالداء هنا في حادثة القتل الحقد والحسد وفقد العواطف الإنسانية النبيلة عند القتل، مما يعني أن القاتل قطع كل الروابط التي تربطه بالجماعة بإقدامه علي القتل، مما يجعله عنصر تدمير وفساد في المجتمع، لذلك ينبغي أن يكون الدواء من جنس الداء عن طريق إبعاده عن المجتمع وحرمانه الحياة كما حرم المقتول من الحياة، لذلك يجب بتره من المجتمع.

والآية الكريمة تبين أن الاعتداء علي النفس هو الجريمة بدون تفضيل في الأنفس سواء أكانت نفس طفل أو رجل أو امرأة، كما لا يهم اللون أو المكانة أو الوظيفة أو الحسب والنسب، فمناط الحماية في الآية الكريمة هي النفس الإنسانية ذاتها، مما يدل علي أن الشريعة الإسلامية تحمي النفس الإنسانية ولا تهدرها بدون حق أو سبب، وتأكيدا علي

[٨٢] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق : سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م، ج ٣، ص ٨٢

ذلك جعلت الآية قتل نفس واحدة مساوية لقتل الناس جميعا فقال تعالى (فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاسَ جَمِيعًا) التشبيه هنا يدل علي اهتمام الإسلام بالنفس الإنسانية وعظم جريمة القتل، فحق الحياة مقدس وهو حق ثابت لكل فرد في المجتمع بقدر متساوي، لذلك عدت الآية قتل نفس بمثابة قتل كل الأنفس وتعادل قتل الناس جميعا لأنه تعدي علي الإنسانية كلها.

وتأكيدا علي أن القصاص حياة قال تعالي في هذه الآية (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاسَ جَمِيعًا) ويدل ذلك علي أن القصاص من القاتل يعني إحياء للحياة المجني عليه باحترام دمه وعدم ضياعه هدرا، وبالتالي تتحصن حياة كل نفس في المجتمع وتحمي وتحيي، لأن القصاص فيه ردعا عام للمجتمع فمن عرف أنه إذا قتل سوف يقتل فأنه يحفظ ويحافظ علي حياته وحياة غيره، وقد أشارت هذه الآية إلي الغاية الحقيقية من القصاص وهي المحافظة علي حياة الأفراد في المجتمع، هذا بشأن القصاص في القتل.

ولكن القصاص يوجد أيضا في الأطراف وليس في القتل وحده، وبينت ذلك ونصت عليه الآية (٤٥) من سورة المائدة فقال تعالي (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنّ النّفْسَ بِالنّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنّ بِالسِّنّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّارَةٌ لّهُ وَمَن لّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّه فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ).

وقد أجمع فقهاء الإسلام من عهد الصحابة إلي عصر الأئمة المجتهدين وبإجماع الأمة علي أن القصاص فرض فيما دون النفس ومكتوب إذا أمكن، بدليل النص عليه في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لأن ما دون النفس(الأطراف) يجب المحافظة عليه والقصاص يحافظ عليه، والقصاص يجب في كل الأطراف وليس في الأطراف المذكورة صراحة في الآية(٤٥) السالفة، بدليل قوله تعالي (وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ)[٨٣].

[٨٣] انظر تفسير أبي السعود، ج ٢، ص ٢٢٨، الألوسي، ج ٤، ص ٤٦٠-٤٦٣، التفسير الوسيط لسيد طنطاوي، ج ٣، ص ٤٥-٤٧

القصاص في غير القتل والقطع والجروح

يُشرع القصاص في اللطمة والضربة والسبة وغير ذلك بشرط المساواة، ويشترط في القصاص في اللطمة والضربة ألا تقع في العين، أو في أي عضو من الممكن أن يتلف نتيجة هذه الضربة.

القصاص في السب : ويشترط في القصاص في السب ألا يكون السب بما هو محرم، فليس للإنسان أن يلعن من لعن أباه، ولا أن يسب من سب أمه وهكذا، وليس له أن يكذب على من يكذب عليه، ولا أن يُكَفِّر من كفّره.

القصاص في إتلاف المال : فمن أتلف مال غيره، كأن هدم له داره أو غير ذلك، يقتص منه بأن يهدم داره وهكذا، وقال بعض الفقهاء: إن هذا القصاص غير جائز، وإن على المعتدى أن يدفع مثل ما أفسده أو قيمته.

القصاص يكون في العدوان المقصود (العمد)، فالقصاص جزاء الاعتداء، ولا يتحقق العدوان المقصود في القصاص إلا بهذه الأمور:

١. أن يكون المتهم ممن يتحمل مسئولية أفعاله، أي يجب أن يكون كامل الأهلية، وليس مصاب بعاهة أو آفة في عقلة، وأن يكون حر الإرادة وليس مكره لأن الإكراه يفسد الإرادة.

٢. ألا يكون الفعل بحق، كأن يكون القتل دفاعا عن النفس أو المال أو العرض، أو يكون المال المسروق ملك السارق، أن يكون للفاعل حق فيما أقدم عليه قررته الشريعة الإسلامية وحمته من العدوان عليه، أو يكون فيه شبهة الحق، وشبهة الحق تثبت في أربعة أحوال: شبهة الملك وشبهة الجزئية وشبة الزوجية وشبهة رضا المجني عليه بالجريمة.

٣. وجود علاقة السببية بين الفعل والنتيجة، وتتحقق السببية بثلاثة أمور هي: أ) فعل ترتب عليه جريمة. ب) وجود صلة بين الفعل والنتيجة الإجرامية. ج) قصد أحداث النتيجة الإجرامية التي حدثت.

أن يتحقق القصد الذي أدي إلي وقوع الجريمة، ويكون ذلك بتعمد أحداثها وقصدها وإرادة حرة مختارة وعلم بالنهي عنها، ففي القتل تزهق الروح أي بالموت.

موانع القصاص في القتل

توجد موانع للقصاص في القتل وهي علي تعددها مختلف فيها بين الأئمة المجتهدين، وتتمثل هذه الموانع فيما يأتي:

١. أن يكون القتيل جزءا من القاتل: يري ذلك كل من أبي حنيفة والشافعي وأحمد، ويكون القتيل جزءا من القاتل إذا كان ولده، فلا يقتص من الأب بالقتل لقول الرسول صلي الله عليه وسلم (لا يقاد الوالد بولده) وقوله (أنت ومالك لأبيك) والحديث الأول صريح في منع القصاص أما الثاني ففيه شبهة تدرأ القصاص وطبقا لقاعدة (درء الحدود بالشبهات) الثابتة في الشريعة الإسلامية، أما الولد فيقتص منه في والده فإذا قتل ولد والده يقتل، حكم الأم كالأب[٨٤]، ويخالف الإمام مالك الفقهاء الثلاثة ويقول بالقصاص هنا كلما انتفت الشبهات[٨٥].

٢. عدم التكافؤ بين المجني عليه والجاني: يشترط مالك والشافعي وأحمد أن يكون المجني عليه مكافئا للجاني، فإذا لم يكن كذلك أمتنع القصاص، ويشترط التكافؤ في المجني

[٨٤] بدائع الصنائع، ص:٢٣٥، المهذب، الجزء الثاني، ص:١٨٦، والمغني، الجزء التاسع، ص:٣٥٩ وما بعدها

[٨٥] الشرح الكبير للدرير، الجزء الرابع، ص:٢١٥، المدونة، الجزء السادس، ص:١٠٨/١٠٦

عليه لا في الجاني، ويعتبر المجني عليه مكافئا للجاني إذا تساويا في الحرية والإسلام، فلا عبرة بعد ذلك فيما بينهما من فروق أخري، فلا يشترط التساوي في كمال الذات ولا سلامة الأعضاء ولا يشترط التساوي في الشرف والفضائل[٨٦]. ولكن أبا حنيفة يخالفهم في ذلك ويري القصاص بين الأحرار والعبيد[٨٧].

٣. الأمر بالقتل : يفرق الفقهاء بين الأمر بالقتل والإكراه، ويأخذون بمنع القصاص في القتل في حالة الإكراه، واختلفوا في حالة الأمر بالقتل، حيث يري مالك والشافعي وأحمد القصاص في الآمر لأنه هو المتسبب في القتل وأن كان المأمور هو الذي قتل ولكنه هنا بمثابة آلة القتل وليس القاتل، ولا يري أبو حنيفة القصاص من الآمر لأنه تسبب في القتل ولم يباشره[٨٨].

٤. الإكراه علي القتل: الإكراه يفسد الإرادة، حيث يري مالك وأحمد والرأي الصحيح عند الشافعية القصاص علي المكره والمكره لأن الحامل المكره تسبب في القتل، ولأن المباشر المكره قتل المجني عليه ظلما[٨٩]، ولكن عند أبي حنيفة ومحمد أن القصاص يجب علي الحامل دون المباشر لقوله صلي الله عليه وسلم (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أستكرهوا عليه)[٩٠].

---

[٨٦] مواهب الجليل، الجزء السادس، ص:٢٣٦، المهذب، الجزء الثاني، ص: ١٨٦، المغني لأبن قدامه، الجزء التاسع، ص:٣٤٨

[٨٧] بدائع الصنائع، الجزء السابع، ص:٢٣٥

[٨٨] الشرح الكبير للدرير، الجزء التاسع، ص:٣٤٢، والجزء الرابع، ص:٢١٨، والمهذب الجزء الثاني، ص:١٨٩

[٨٩] الشرح الكبير للدرير، الجزء الرابع، ص:٢١٦، المغني، الجزء التاسع، ص: ٣٣١، المهذب، الجزء الثاني، ص:١٨٩

[٩٠] بدائع الصنائع، الجزء الثاني، ص:١٨٠.

٥. أن تكون الأداة التي استعملت في القتل مما يقتل به غالبًا. ويدخل في ذلك الإغراق في الماء والخنق والحبس والإلقاء من شاهق والإحراق بالنار، والقتل بالسم، فقد وضعت يهودية السم للرسول في شاة، فأكل منها لقمة ثم لفظها، وأكل معه بشر بن البراء، فعفا عنها النبي ولم يعاقبها، فلما مات بشر بن البراء قتلها به[٩١].

ولا يقتل القاتل إلا بعد أن يؤخذ رأى أهل القتيل فيه، فإن طلبوا قتله قتل وكان القتل كفارة له، وإن عفوا عنه عفي عنه. وأخذت منه الدية وهى تقدر بحوالى ٤٢٥٠ جرامًا من الذهب تقريبًا. وعليه الكفارة وهى عتق رقبة مؤمنة. فإن لم يجد فعليه صوم شهرين متتابعين، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فأتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدي بعد ذلك فله عذاب أليم)[٩٢].

ما يثبت به القصاص وشروطه

يثبت القصاص باعتراف القاتل، أو بشهادة رجلين يعرف عنهما الصلاح والتقوى وعدم الكذب؛ يشهدان أنهما قد رأيا أو شاهدا القاتل وهو يقتل. ولا تصح شهادة المرأة في القصاص، فلا يشهد على القتل رجل وامرأة أو رجل وامرأتان. وإنما لا بد من أن يكون الشاهدان رجلين. وهذا رأى جمهور الفقهاء. لكن يرى بعض الفقهاء أنه يصح الأخذ بشهادة المرأة في القصاص. فإن ثبت القتل بالشهادة وجب حد القصاص على القاتل. فإن عفا عنه أولياء القتيل أو بعضهم لا يقام عليه الحد. وعليه دفع الدية.

[٩١] متفق عليه

[٩٢] البقرة: ١٧٨

بناء علي ذلك لا يثبت القصاص في القتل إلا بتوافر الشروط التالية :

الأول: أن يكون القتل بنحو العمد.

الثاني: التساوي في الحرية و العبودية، فيقتل الحر بالحر و العبد بالعبد و لا يقتل الحر بالعبد، بل يغرم قيمته يوم قتله مع تعزيره بالضرب الشديد.

الثالث: التساوي في الدين، فلا يقتل المسلم بالكافر - وإن لزم تعزيره فيما إذا لميكن القتل جائزاً- بل يغرم ديته لو كان ذمياً.

الرابع: أن لا يكون القاتل أباً للمقتول، فلا يقتل الأب بقتله لابنه، بل يعزر و يلزم بالدية.

الخامس: أن يكون القاتل بالغاً عاقلاً وإلاّ فلا يقتل و تلزم العاقلة بالدية.

السادس: أن يكون المقتول محقون الدم، فلا قصاص في القتل السائغ، كقتل سابِّ النبي أو قتل المهاجم دفاعاً و ما شاكل ذلك.

كيفية تنفيذ القصاص

يقتل القاتل بالطريقة التي قتل بها عند بعض الفقهاء؛ لقوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)[٩٣]. وقال بعض الفقهاء بل يكون القصاص بالسيف.

ما لا يقام فيه قصاص وتحل الدية محله: تتمثل هذه الحالات في الآتي:

- قطع عضو أحد الناس خطأ دون تعمد.

[٩٣] النحل:١٢٦

- الجروح التي يستحيل فيها التماثل.
- الجروح التي تقع بالرأس والوجه؛ وهى ما يسمى بـ (الشجاج) إلا إذا كشف الجرح عن العظم فعندئذ يقام القصاص.
- اللسان وكسر العظم، فلا قصاص فيهما لأنه لا يمكن الاستيفاء أو التماثل بغير ظلم.

من يُنفِذ القصاص

القصاص لا يحق لأحد إقامته إلا الحاكم أو من ينوب عنه. فلا يحل لولى القتيل أن يقتل القاتل حتى لا تنتشر الفوضى.

وقد ورد في التفسير القرطبي : اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتص من أحد حقه دون السلطان. وليس للناس أن يقتص بعضهم من بعض. وإنما ذلك لسلطان أو من نصبه السلطان لذلك. ولهذا جعل الله السلطان ليقبض أيدي الناس بعضهم عن بعض.

وأجمع العلماء على أن على السلطان أن يقتص من نفسه إن تعدى على أحد من رعيته. إذ هو واحد منهم. وإنما له مزية النظر لهم كالوصي والوكيل. وذلك لا يمنع القصاص. وليس بينهم وبين العامة فرق في أحكام الله عز وجل لقوله جل ذكره: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى). وثبت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرجل شكا إليه أن عاملا قطع يده : لئن كنت صادقا لأقيدنك منه. وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري. قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم شيئا إذ أكب عليه رجل، فطعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرجون كان معه، فصاح الرجل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تعال فاستقد). قال: بل عفوت يا رسول الله. وروى أبو داود الطيالسي عن أبي فراس قال: خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ألا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلي أقيده منه. فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، لئن أدب رجل منا رجلا من

أهل رعيته لتقصنه منه؟ قال: كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه. ولفظ أبي داود السجستاني عنه قال: خطبنا عمر بن الخطاب فقال: إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، فمن فعل ذلك به فليرفعه إلي أقصه منه. وذكر الحديث بمعناه[٩٤].

استيفاء القصاص

يشترط لاستيفاء القصاص في ثلاثة شروط هي: (١) أن يكون المستحق له عاقلا بالغًا. (٢) أن يتفق أولياء المقتول جميعًا على استيفاء القصاص، فإذا رفض أحدهم سقط القصاص. (٣) ألا يتعدى القصاص الجاني إلى غيره، فلا يقتص من حامل حتى تضع حملها، وترضعه إن لم تجد مرضعًا[٩٥].

الأسباب العامة لامتناع القصاص

توجد عدة أسباب لو توافر سبب منها امتنع الأخذ بالقصاص وهذه الأسباب منها ما سبق شرحه هي[٩٦] : (١) إذا كان القتيل جزءا من القاتل، وسبق بيان ذلك في القصاص في النفس. (٢) انعدام التكافؤ بين الجاني والمجني عليه، ينظر إلي التكافؤ من ناحية المجني عليه وحده دون الجاني. (٣) أن يكون الفعل الموجب للقصاص حدث خطأ أو شبه عمد. (٤) أن يكون الفعل الموجب للقصاص تسببا. (٥) أن يكون الفعل الموجب للقصاص وقع في

[٩٤] أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق : هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣م، ج٢، ص ٢٥٥-٢٥٦

[٩٥] الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، اختلاف الأئمة العلماء، دار الكتب العلمية – لبنان / بيروت – ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م، ج ٢، ص ٢٢٢-٢٢٤ بتصرف

[٩٦] القاضي الشهيد عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالشريعة الإسلامية، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص:٢١٣/٢١٩

دار الحرب وهذا رأى الحنفية وحدهم دون باقي الأئمة.٦) عدم إمكان الاستيفاء.

إذا توافر أي سبب من الأسباب السالفة يمتنع تنفيذ القصاص، ولكن لا تبرأ ذمة الجاني ويطلق سراحه دون عقاب، فهذه الأسباب ليست أسباب إباحة أي تجعل الفعل إذا التحقت به مباحا، ولكن تظل ذمة الجاني مشغولة بالدية لا تبرأ إلا بدفها أما للمجني عليه فيما دون النفس أو لورثة القتيل في النفس.

الخاتمة

جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالدين الحنيف من عند الله تعالى ولم تكن شريعته إلا تكملة وهيمنة على ما قبلها من الشرائع. وهذا يدلنا على أن ما نقص وما تخلل فيما مضي يستحيل أن يعيده الإسلام مرة أخرى. فشريعة الله قد مرت بالحوادث والمخالفات والانحرافات التي مارسها الأمم السابقة. ومن هذه التجارب يأتي الإسلام بمناهج نضجة ومتكاملة في كل تعاليمه. ومن بينها العقوبات التي تتميز بالعدالة والحكمة البالغة والمنافع العميقة. بناء على تجاربه الطويلة ومجيئته من لدن حكيم عليم سبحانه وتعالى. ولو اعترض فرد من الأفراد أو رأي من الآراء بعد اطلاعه أو لنقول بعد بحثه لمدة عشر سنين على سبيل المثال، فتجارب الإسلام قد مرت بعدة قرون وأحقاب من لدن سيدنا آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم.[]

المراجع

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق : سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الشيرازي، المهذب في فقه الامام الشَّافِعِي،

أبو البركات أحمد بن محمد العدوي، الشرح الكبير.

أبو الحسن علي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤٠٤ هـ

أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٢٤٧/١

أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق : سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، ج٣، ص ٦٢

أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق : سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة، طبقات الشَّافِعِية، عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٧ هـ

أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة

أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، سنن النسائي

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند أحمد

أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق : هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣م،

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة : ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م

أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه.

أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ

أكرم ضياء العمري، عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العبيكان.

الإمام محمد أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي.

سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني أبو داود،

الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الزرقاء، ، شرح القواعد الفقهية.

عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٦ هـ

عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت .

علاء الدين الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتاب العربي، ١٩٨٢م.

فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير و مفاتيح الغيب.

القاضي الشهيد عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي.

كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، فتح القدير شرح الهداية.

مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، موطأ الإمام مالك.

محمد بن أحمد الخطيب الشربيني ، مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج.

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الجامع الصحيح البخاري

محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة.

محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين.

محمد بن علي بن محمد الشوكاني، نيل الأوطار، إدارة الطباعة المنيرية.

محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر –بيروت.

مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم.

المقدسي، بهاء الدين عبد الرحمن، العدّة شرح العمدة، تحقيق : صلاح بن محمد عويضة، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

النَّبَهَانِيّ، تقيّ الدِّين، الشخصية الإسْلاميَّة، دار الأمة للطباعة والنشر.

الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، اختلاف الأئمة العلماء، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر - سوريَّة –دمشق.

يوسف القرضاوي: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده.